ملحق اسبوعي 16 صفحة رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير فخري كريم العدد (3368) السنة الثانية عشرة الاثنين (25) أيار 2015
www.almadasupplements.com

ذاكرة عراقية

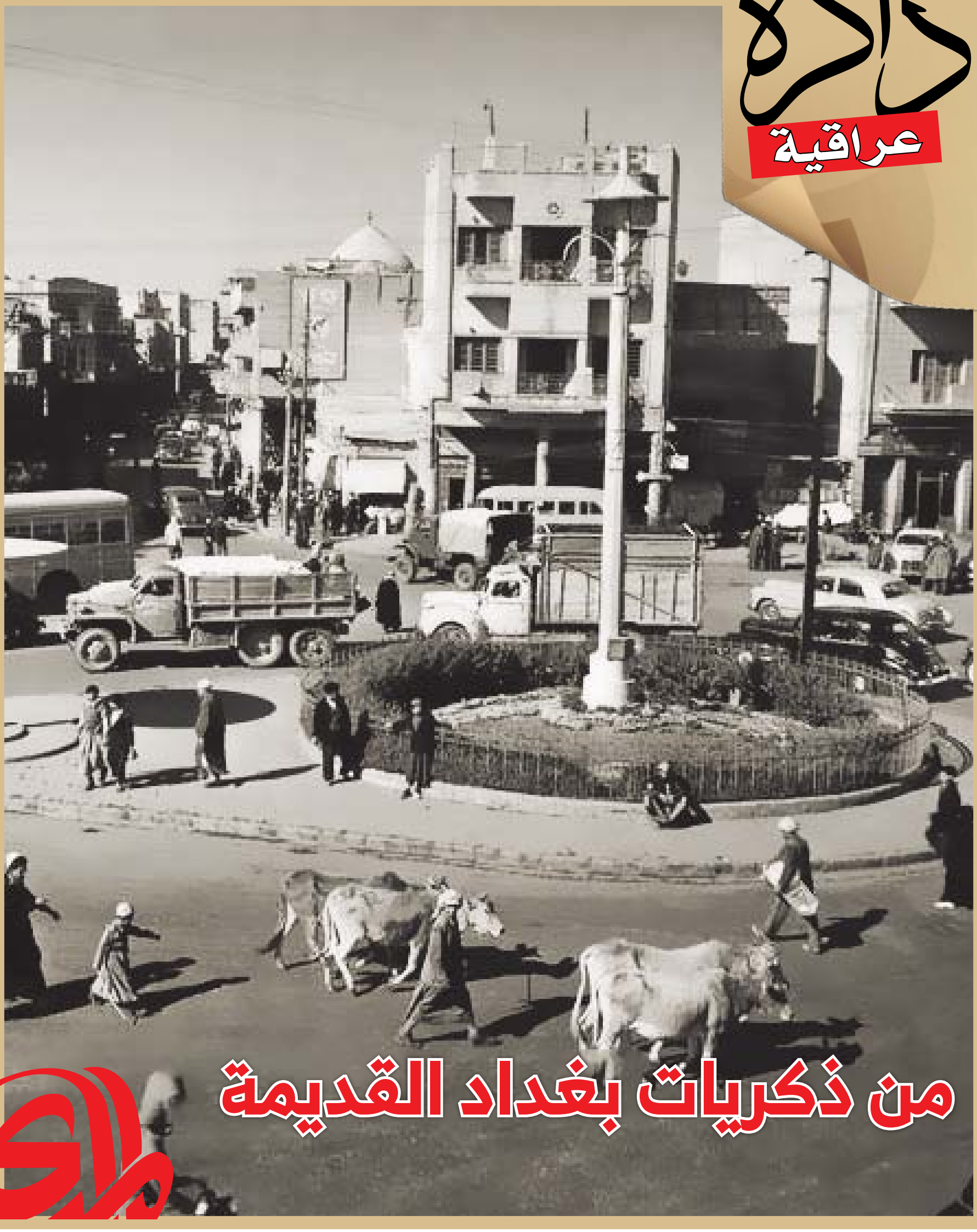

من ذكريات بغداد القديمة

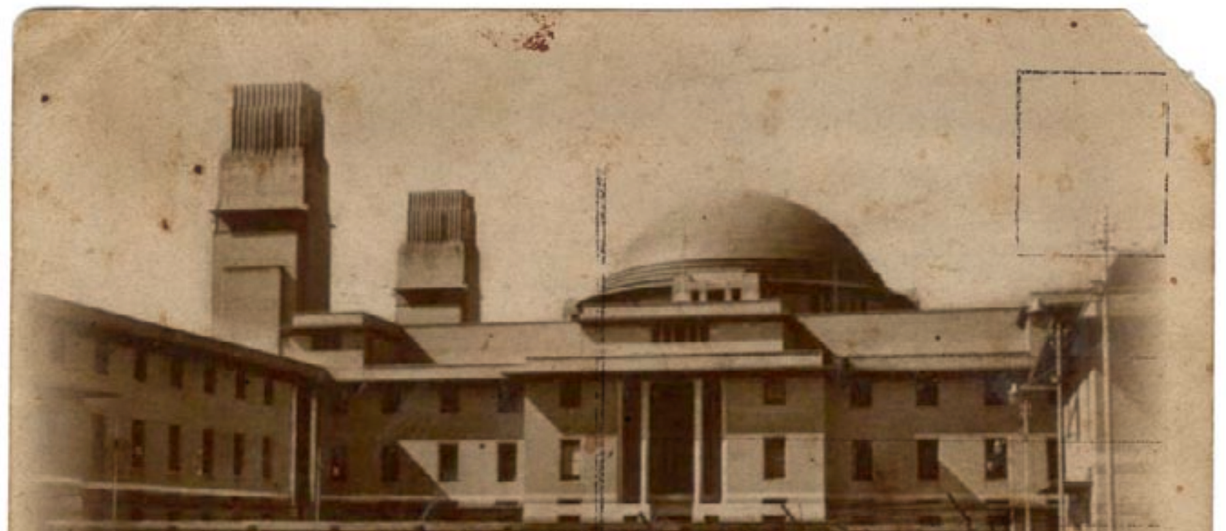

قصة السكك الحديد في العراق

■ د.ابراهيم العلاف

لقد كان العراق بولاياته الثلاث بغداد والموصل والبصرة في القرن التاسع عشر .. ميدانا للتنافس بين الدول الاستعمارية الكبرى بريطانيا والمانيا وفرنسا وروسيا ولم تكن الدولة العثمانية بعيدة عن هذا التنافس واتضح التنافس في مجالين مهمين هما :الملاحة النهرية والبحرية والسكك الحديد .وكان الهدف من وراء هذا التنافس هو السيطرة على خطوط المواصلات العالمية . ويقينا ان الصراع بين الدول الاستعمارية احتدم حول مد سكك حديد عبر العراق بدرجة لاتقل عن احتدام الصراع حول مشروعات الملاحة البخارية فيه ولمشروعات الملاحة البخارية ولبيت لنسج في العراق قصة طويلة يمكن ان نتحدث عنها في حلقة اخرى من هذا البرنامج .

ومن المؤكد ان الاوضاع السياسية في أواسط اسيا وفي الشرق الاوسط أسهمت اسهاما كبيرا في تقوية رغبات الدول الاستعمارية الكبرى ..وفي المقدمة منهم الانكليز في مد خطوط سكك حديد عبر ولايات العراق وفي اعقاب تدخل ايران وكانت تسمى مملكة فارس انذاك في افغانستان فكرت بريطانيا في ارسال حملة عسكرية ضد ايران بأعتبار ان ذلك محاولة لحماية المصالح البريطانية في الخليج العربي وفي الهند درة التاج البريطاني كما كانت تسمى انذاك .

وهكذا ارسل الانكليز حملة كبرى استولت على الاحواز من خلال نهر الكارون وكان لهذه الحملة دور كبير في تخلي شاه ايران عن مشروعاته التوسعية في وسط اسيا .ومن الطريف ان نذكر بأن الباخرة البريطانية كوميت التابعة للقنصلية البريطانية في بغداد اشتركت في الحملة البريطانية المسلحة للسيطرة على الاحواز.

وعندما نشبت في الهند ثورة ضد النفوذ البريطاني سنة ١٨٥٧ بدأ الانكليز يفكرون في العراق وينظرون الى طريقه المهم كقاعدة استراتيجية لمواجهة الاوضاع في الجزء الغربي من امبراطوريتهم وطريق يمكن ان يكون بديلا منافسا لمشروع قناة السويس الفرنسي الذي كان الانكليز يتابعون مراحله بأنزعاج شديد .

وهنا ظهرت فكرة احياء استخدام السكك الحديد ومدها ترجع الى سنة ١٨٤٠ .علما بأن اول افتتاح للسكك الحديد في العالم كان سنة ١٨٢٥ بتخطيط من الانكليزي جورج ستيفنسون .

لقد كان الصراع الروسي –البريطاني في ذلك الوقت على أشده بين بريطانيا وروسيا .. وقد اقتضت الجوانب الاقتصادية لذلك الصراع ان يعمل الانكليز على انشاء خطوط مواصلات سريعة ومباشرة وامنة عبر العراق ومن ثم الى مستعمرتهم الهند للحيلولة دون تدفق البضائع والسلع الروسية اليها .

وكما قلنا في حلقة الخدمات البريدية والبرقية في العراق عبر حلقة سابقة من برنامجنا هذا فأن مشروعات مد السكك الحديد رافقت مشروعات مد خطوط التلغراف ومن ثم ارتبطت بالتنقيب عن النفط في فترة لاحقة .

لقد كان على الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا وفرنسا لكي يبدأوا بمشاريعهم في مد خطوط التلغراف وسكك الحديد موافقة الدولة العثمانية صاحبة السيادة على العراق لذلك امتدت الصراعات الى داخل العاصمة استنبول واصبح الفرنسيون والانكليز يتسابقون للحصول على امتيازات مد سكك الحديد من السلطان العثماني واشتد التنافس وتدفقت الاموال وتأسست البنوك ودارت المفاوضات بين الانكليز والفرنسيين لاقتسام مناطق النفوذ والتعاون وتسوية النزاعات وكان ما يدفعهم لذلك النفوذ الروسي الذي وجد له طريقا داخل الدولة العثمانية ومع هذا ظل الانكليز يخافون النفوذ الفرنسي ويتصدون له في العراق والهند .

وقد تكونت شركات فرنسية وبريطانية متخصصة بمد سكك الحديد وتقدم مواطن بريطاني اسمه اندرو بمشروع مد سكة حديد عبر العراق وطالب حكومته ان تضمن مشروعه لكنه لم يحصل على ذلك حيث ان رئيس الوزراء البريطاني بالمرستون لم يقتنع بالمشروع وقد انطلق بالمرستون من فكرة ان سياسة حكومته تقوم على ضمان الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية ومن ثم عدم التدخل في شؤونها ومع هذا تجددت المساعي لطرح مشروع خط سكة حديد الفرات على مجلس العموم البريطاني سنة ١٨٦٣ ومن الغريب ان الانكليز كانوا يعارضون مشروع قناة السويس التي فتحت للملاحة سنة ١٨٦٩ وقالوا بأنها مشروع غير اقتصادي وان على بريطانيا ان تقف ضده لانه يهدد سلامتها ومصالحها في الهند .

كانت الحكومة البريطانية ترى ان خط حديد الفرات سوف لن تكون له قيمة بعد فتح قناة السويس ورأى بالمرستون ان مد خطوط تلغراف في المنطقة أهم وايدت الدولة العثمانية هذا التوجه .

حدث في اواخر القرن التاسع عشر تحول مهم في مجال مد سكك الحديد ، ففي سنة ١٨٩٩ استطاعت المانيا من الحصول على امتياز من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وبموجب هذا الامتياز اصبح يحق للالمان – وكانوا يحتفظون بعلاقات وثيقة مع العثمانيين – مد خط سكة حديد الاناضول الى الموصل ومنها الى بغداد والبصرة كما كان مقررا ايضا ان ينتهي هذا الخط بالكويت على الخليج العربي .وكان هذا الخط قد عُرف تاريخيا بخط سكة حديد بغداد البصرة برلين او سكة الباءات الثلاث .وكان ذلك قبيل الحرب العالمية الاولى وسرعان ما بوشر بأنشاء تلك السكة بمراحل واما ما يخص العراق فقد تم– كما سنرى – بعد قليل انشاء القسم الممتد من بغداد الى سامراء وافتتح في سنة ١٩١٤ بعد اعلان الحرب بقليل وفي اثناء الحرب توقف العمل فيه ولم يكتب للالمان ان يتوفقوا في اكماله .وان معظم السكك الحديد الاخرى تم انشاؤها على يد الجيش البريطاني الذي احتل العراق خلال الحرب العالمية الاولى .

لقد كانت المانيا في سنة ١٨٨٥ قد اتمت مد سكة حديد البلقان وقد مهد هذا للاتصال المباشر مع استنبول العاصمة العثمانية وفي سنة ١٨٨٨ حصل الالمان من الدولة العثمانية على امتياز خط سكة حديد حيدر باشا –ازمير .وفي سنة ١٨٨٩ تأسست شركة سكة حديد الاناضول برأسمال الماني وبذلك اكتمل خط انقرة في سنة ١٨٩٣ ثم كمل خط اسكي شهر وقونية في سنة ١٨٩٦ ثم اخذ الامتياز ولكن لم يشرع به بخط انقرة –قيصرية –سيواس –ديار بكر –بغداد وفي سنة ١٨٩٩ تمت المصادقة على امتياز قونية –الخليج العربي عبر الموصل وبغداد ومن ثم البصرة فالكويت .

حدث نوع من التقارب بين بريطانيا والمانيا وتم الاتفاق على ان يمد الخط المشار اليه الى البصرة فقط واذا اريد له ان يستمر الى الكويت فلابد ان يكون ذلك بموافقة بريطانيا.

كان الانكليز يحرصون على المشاركة بتمويل هذا الخط الا ان البرلمان والراي العام البريطاني رفض سياسة رئيس الوزراء انذاك ارثر بلفور في ان تتم المشاركة بالتمويل وقد يكون من المناسب القول ان فكرة ومشروع مد سكك الحديد منها الخط الذي عرف بخط سكة حديد بغداد ظل مشروعا للنقاش في البرلمان البريطاني وحتى في البرلمان الفرنسي لما لذلك من تاثير على مستقبل مصالحهما وصراعهما المستقبلي مع الالمان .

وتشير الوثائق المتداولة ، والتي بايدينا ، ان المانيا وبعد الاتفاق بين الحكومات العثمانية والبريطانية والمانية –خطت خطوة فعالة في اطار تنفيذ المشروع ولم تكد تحل سنة ١٩١٢ حتى وصلت اول شحنة من مواد انشاء خط سكة حديد بغداد .. وفي سنة ١٩١٤ ومع اندلاع لهيب الحرب العالمية الاولى كان الخط العريض للسكة مابين بغداد وسامراء قد تم انشاؤه .

يقول الاستاذ عبد الكريم حسان خضير في مقال له انه بوشر بمد هذا الخط في ٢٧ تموز سنة ١٩١٢م ويسمى بالخط (العريض) من بغداد باتجاه الشمال،فوصل الى سامراء عندما قامت الحرب العالمية الاولى...حيث اكمل الانكليز فيما بعد هذا الخط الى الشرقاط جنوب مدينة الموصل.. وعن الاحتفال بوضع حجر الاساس لهذا الخط جاء في مجلة لغة العرب لاب انستاس الكرملي لشهر ايلول ١٩١٢م ما نصه :(كان الاحتفال بوضع الحجر الاول لسكة حديد بغداد في جانب الكرخ .. وقد دعا رئيس الاشغال العامة والي بغداد جمال باشا صباح يوم السبت ٢٧ تموز ١٩١٢م.وحضر الاحتفال رجال الحكومة العثمانية كافة من عسكريين وملكيين وسراة الوطنيين وقناصل الدول الاجنبية..وكان الاحتفال عظيماً ما شاهدت بغداد مثله..!) وقد استفاد الاتراك من استخدام خط بغداد – سامراء بنقل جيوشهم ومعداتهم الحربية اثناء انسحابهم واخلائهم بغداد ليلة العاشر من اذار/ ١٩١٧م. فنقلوا ما تمكنوا من نقله واشعلوا النيران في المتبقي..فغطى الدخان الاسود والظلام مدينة بغداد.وقد بنى الالمان قصرين كبيرين شاهقي الارتفاع لم يعتد اهالي الولاية امثالها فكانوا موضع اعجابهم..ويعرفان بقصور الجرمن... واتخذا كمقر لهم ويقعان في جانب الكرخ قرب منطقة الصالحية في (الاراضي العائدة الى المرحوم كاظم السهيل)على جانبي شارع حيفا (المنصور سابقاً). في المنطقة المعروفة باراضي السكك القريبة من مبنى اذاعة وتلفاز بغداد (حاليا).ويروي المرحوم نصيف السكران انه اشتغل عامل بناء (طين) في بناء القصرين،وشاء القدر ان تدخل حفنة من الرمل في عينيه فترمد ولقلة وسائل التطبيب فقد بصيره وقضى طيلة حياته كفيف البصر معتمداً على عصاه التي لا تحمي جبهته من الصدمات...وقد اتخذ احدهما (على الجانب الايسر وانت نازل الى محلة كرادة مريم) كمسكن للامير عبد الاله. عندما كان شابا ومؤظفاً في وزارة الخارجية العراقية لفترة من الزمن...وكثيراً ما كنا نشاهده- ونحن الاطفال- وهو يدخل بمفرده من تلك البناية والتي كانت بدون حراسة...وقد هدمت هذه البناية الاثرية لتضاف الى حدائق فندق المنصور مبليا... ومازالت البناية الثانية باقية لتتخذ دائرة للسكك،وشغلتها لفترات شرطة السكك وبعض النقابات واخيراً كانت مقراً لفوج حراسة مبنى الاذاعة والتلفاز ...وياللحسرة وما يحز في النفوس ان هذه البناية الاثرية (الباقية) هي مهملة في طريقها الى الانهدام والانقراض ونحن بدورنا نهيب بدائرة الاثار والتراث التابعة لوزارة الثقافة،وحتى لا يمحى هذا الصرح الاثري النادر من الوجود وان تقوم بالاشراف والمحافظة عليها ونأمل ان تكون لهذه الاستغاثة من سامع..! وقد مد الانكليز خط السكك الخاص بهم من البصرة للاغراض العسكرية وخدمة للمجهود الحربي اثناء تقدمهم وزحفهم نحو بغداد. توسعت سلطات الاحتلال الانكليزي في استعمالك الاراضي بموازاة الخط الحديدي لغرض بناء المحطات وورش التصليح فعندما وصلوا بغداد بنو ثلاث محطات رئيسة اثنتان في جانب الرصافة وهما (محطة شمالي بغداد (باب المعظم) والثانية في (شرقي بغداد (محطة باب الشيخ) اما الثالثة فكانت في جانب الكرخ وهي محطة (غربي بغداد) والتي استقبل فيها الملك فيصل الاول عند قدومه الاول من البصرة الى بغداد...وعند شمال هذه المحطة اسسوا معامل الثالجية،وهي من اكبر الورش الصناعية في تاريخ العراق لتصليح القطارات وعربات النقل..وظل هذا المرفق الصناعي يقدم خدمات التصليح والعطل ويرفد الجهد الصناعي بالعمال والفنيين المهرة طيلة دخول القاطرة الى العراق.

وفي بداية الخمسينات من القرن الماضي مدت السكة من مدينة كركوك الى اربيل في الشمال واستخدام لفترة واخيرا تقرر رفع الخط نهائيا والمتصل من بغداد- كركوك- اربيل. اعتمدت قوات الاحتلال الانكليزي في توفير الايدي العاملة العراقية... على كادرها الوظيفي وعلى جهات منها: الهنود الذين دخلوا ضمن قوات الاحتلال وكانت لهم الخبرة في تشغيل القطارات.. والاثوريين الذين نزحوا من تركيا عن طريق ايران وسكنوا في مخيمات في ضواحي مدينة بعقوبة واكثر ما اشتغلوا في ادارة المحطات التي تقع على امتداد خطوط السكك.. وعلى الجالية التي كان لها المام بالامور الحسابية ومسك الدفاتر ومعرفتها اللغة الانكليزية.. حتى وصل منهم الى درجة رفيعة (نائب المدير العام) وبعد نقل ملكية هذا المرفق الى الحكومة العراقية... وعند جنوب محطة غربي بغداد شيدوا بناية كبيرة جدا عالية السقوف (اللوكة) وهي غسل وفحص وتزييت القاطرات والتي كثيرا ما اتلفت محاصيلنا الزراعية نتيجة (ماء الغسيل الملوث) والممزوج بالنفط والزيت ولان نهاية مجراه بحدود بستان السيد خضير العباس التي هي على مقربة من هذا المأوى. ظلت ملكية هذا المرفق الحيوي وادارته بيد الانكليز لمدة طويلة من الزمن... وبعد مفاوضات ومباحثات عدة ومعقدة تم نقل ملكيتها الى الحكومة العراقية وكان اخر مدير عام (انكليزي) لهذه المؤسسة هو المستر (سمث) وبعده تسلمت ادارتها شخصيات عراقية وطنية... واول ما فكرت به هو انشاء محطة مركزية كبيرة على غرار محطة لندن حيث تكون منطلقا لجميع خطوط السكك في العراق..ورسا مشروع المحطة العالمية في نهاية الاربعينات على شركة انكليزية هي (Holway Brothers)

وشرعت هذه الشركة بالبناء واكملته عند الخمسينات وانتقلت لهذه البناية الضخمة ذات القبة الخضراء الادارة العامة للسكك الحديد العراقية بجميع اقسامها ماعدا المطبعة... وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ومن خلال انفجار ثورة البناء والاعمار قررت حكومة عبد الكريم قاسم تقسيم الاراضي الخالية والعائدة للسكك والقريبة من المحطة العالمية الى قطع سكنية وبنتها وجرى اسكان موظفي السكك فيها. واخيرا سجلت ملكيتها على من كان ساكنا تلك الدور وكذلك قامت الجمهورية بتبديل مقياس خط السكة القادم من البصرة الى بغداد والذي مدته قوات الاحتلال الانكليزي الى الخط الجديد المتري (العريض) لغرض توحيد مقياس جميع الخطوط العاملة في العراق....

عندما نشبت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ احتل الانكليز البصرة سنة ١٩١٤ وبغداد سنة ١٩١٧ والموصل سنة ١٩١٨ وقد تعرضت المعامل والقاطرات التي جلبها الالمان الى تدمير كبير من جراء الاعمال القتالية .

وهكذا لم يكن في العراق سنة ١٩١٤ من خطوط السكك الحديد سوى خط يبلغ طوله قرابة ١١٩ كيلومترا .

ويشير الاستاذ عبد الرزاق الهلالي في "معجم العراق " الى انه عندما احتلت الجيوش البريطانية البصرة سنة ١٩١٤ وانسحبت القوات العثمانية نحو الشمال ظهرت للسلطة البريطانية المحتلة الضرورة الماسة لوجود خطوط السكك الحديد لتامين مواصلاتها رسيما عندما قررت ملاحقة القوات العثمانية والزحف شمالا بمحاذاة نهري دجلة والفرات .

ولذلك باشرت السلطات البريطانية بتامين مواصلاتها وانشاء خطين احدهما يمتد من البصرة الى الناصرية والاخر من البصرة الى مدينة العمارة .ثم لما احتل الانكليز كلا من الناصرية والعمارة مدوا الخط الاول الى مدينة السماوة وبدأوا بند خط جديد من مدينة الكوت الى بغداد ومنها الى الحدود الايرانية .

وفي ايلول سنة ١٩١٦ شرع الانكليز –خدمة لمصالحهم العسكرية والاقتصادية – بتاسيس " مديرية السكك الحديد " .

لقد كان في العراق عندما انتهت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ اربعة خطوط للسكك الحديد وهي :

١.الخط الممتد من البصرة والسماوة

٢.الخط الممتد بين البصرة والعمارة

٣. الخط الممتد بين الكون وبغداد

٤. الخط الممتد بين بغداد وسامراء وهذا هو الخط الذي اسسه الالمان كما سبق ان قلنا قبل قليل .

ولما كانت الضرورة تقضي بايصال الخط الممتد من البصرة الى بغداد لاسيما وانه يمر في منطقة زراعية مهمة ولهذا فقد مدد الخط من السماوة الى الحلة ثم منها الى بغداد . ومن الجدير بالذكر انه بوشر بمد هذا الخط في سنة ١٩١٨ وانتهى العمل به سنة ١٩٢٠ وقد سار عليه اول قطار من بغداد الى البصرة في هذه السنة اي سنة ١٩٢٠ .

في سنة ١٩٢٠ انتقلت ادارة شؤون السكك من الادارة العسكرية الى الادارة المدنية .وقد كانت تدار من قبل موظفين بريطانيين باشراف المندوب السامي البريطاني .

ورغبة في تسيير القطارات والاستفادة منها في النقل فقد سبق ان اصدر الفريق ماكمن وكيل القائد العام للقوات البريطانية بيان السكك الحديد لسنة ١٩١٩ الذي وضعت بموجبه التعليمات والاوامر وما الى ذلك وهو اول بيان يصدر في هذا الخصوص .

وفي سنة ١٩٢٤ انتقلت ادارة السكك الحديد الى حكومة العراق الا ان ملكيتها ظلت للحكومة البريطانية حتى اذا جاءت سنة ١٩٣٦ انتقلت الى الحكومة العراقية بموجب قانون ابرام الاتفاقية العراقية المختصة بنقل ملكية السكك الحديدية للحكومة العراقية رقم ٥٢ لسنة ١٩٣٦ ومن هنا فأن يوم ١٦ نيسان سنة ١٩٣٦ عيد عيدا للسكك الحديد في العراق . والجدير بالذكر ان مفعول هذه الاتفاقية انتهى بتاريخ ٢ تموز سنة ١٩٥٢ بموجب القانون رقم ٨٤ لسنة ١٩٥٢

ويذكر الاستاذ سمير خليل في مقالة له عن السكك الحديد ان اول مجلس ادارة للسكك الحديد تشكل في تموز سنة ١٩٣٦ وتألف من وزير الاقتصاد ورئيس اركان الجيش ومدير البلديات العام ومدير البناء والملاحة والسكك ومستشار وزارة المالية ومديرا الحركات والتجارة. وتوالت اشكال وانواع القطارات التي انطلقت من هذه المحطة وتدرجت قطاراتها من البخارية التي كانت تعمل بالفحم الى القاطرات المعروفة بالديزل .

كان العراق من اوائل دول الشرق الاوسط استخداما للقطارات في نقل المسافرين والبضائع ..وتشير الوثائق التي بأيدينا ان أول رحلة تم تسييرها كانت من بغداد إلى سميكة (الدجيل) إلى الجنوب من مدينة سامراء سنة ١٩١٩، بينما تم تسيير أول قطار بين بغداد والبصرة سنة ١٩٢٠، وأول قطار بين بغداد وكركوك سنة ١٩٢٥، وأول قطار بين بغداد والموصل تم تسييره سنة ١٩٤٠، وأول قطار من العراق إلى محطة حيدر باشا في اسطنبول كان في الاول من تموز سنة ١٩٤٠. وإن "العراق ما زال يستخدم سكك الحديد التي بناها الألمان سنة ١٩١٤ وطورها البريطانيون سنة ١٩١٦ أثناء استعمارهم للعراق.....ثم سُير قطار من المعقل في البصرة الى بغداد على الخط المتري وهو اقل من ٩٠ سم ومن بغداد الى الموصل على الخط المتري وكذلك من الموصل الى اسطنبول ويسمى بقطار طوروس أو قطار الشرق السريع ويتوقف في الجانب التركي الاسيوي ومن ثم يباشر من الجانب الاوربي مخترقا اوربا وصولا الى العاصمة البريطانية (لندن) وهو في ذلك كان يعد – كما تقول ايفين جرمكا –اطول رحلة في القطار عالميا ولكنها رحلة دقيقة في مواعيدها وغنية في خدمتها ونظافتها وكان هذا القطار مضربا للامثال في قيافة العاملين عليه من السائق ومساعديه الى المراقب الى العمال وحتى الحمالين والنظام الدقيق المتبع في هذه القطارات .

لقد أصبحت السكك الحديد ملكا للحكومة العراقية منذ سنة ١٩٣٦ والحقت ادارة السكك بوزارة المواصلات والاشغال سابقا اي وزارة المواصلات لاحقا .وفي سنة ١٩٥٣ صدر قانون يقضي بجعل ادارة السكك مصلحة مستقلة يتولى ادارتها نيابة عن الحكومة مجلس ادارة ويعد المدير العام المرجع الاعلى لشؤون المؤسسة وتتبعه شعبة المحاسبات ورئاسة التدقيق ورئاسة الحقوق والاراضي والمطبعة والهندسة وشعبة القوة المسؤولة عن تشغيل وصيانة القاطرات والعربات والشاحنات والكاشفات الالية –الطرزينة وكانت معامل الشالجية تضم ١٧ قسما يدير كل قسم مهندس مختص كما ان هناك شعبة التقليات شعبة الحركة وشعبة التجارة .وكان عدد موظفي السكك بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أي في سنة ١٩٦٠ حوالي ٣٥٠٠ واما العمال فبلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠ كلهم من العراقيين وبعد الثورة افتتح الزعيم عبد الكريم قاسم مشروع انشاء سكة حديد بغداد –البصرة العريض الذي كان ينتهي عند ساحل الخليج العربي في ميناء ام قصر وذلك في اوائل سنة ١٩٦٠ وقد جهز الخط باحدث القاطرات والمقطورات المريحة .

كان اول قطار سُير الى اسطنبول في الاول من تموز سنة ١٩٤٠. كما تشكلت اول ادارة للسكك في العراق في ايلول ١٩١٦ تحت سيطرة القوات العسكرية البريطانية ، ثم انتقلت ادارة السكك في العراق من عهدة الجيش الى الادارة المدنية البريطانية في ١٩٢٠/٤/١ .بعدها انتقلت ملكية السكك الى الحكومة العراقية في ١٩٣٦/٤/١٦ واصبحت تسمى ب :سكك حديد الحكومة العراقية " س ح ح .. واصبح ذلك اليوم عيدا للسكك الحديد العراقية تحتفل به كل عام.

في سنة ١٩٤٨ وضع الحجر الاساس لبناية المحطة العالمية للسكك الحديد في بغداد وانجزت بشكل نهائي سنة ١٩٥٢ بتصميم انكليزي وهي تـوأم لمحطتين بنيتا ايضا بعد الحرب العالمية الثانية احدهما في الهند والاخرى في لندن وتتشابه المحطات الثلاث في كل شيء.. ويضم بريجا المحطة ساعتين احدهما تحمل ارقاما هندية عربية والثانية تحمل ارقاما انكليزية وتشابه دقات ساعاتي المحطة العالمية في بغداد، ساعة بغ بن الشهيرة في لندن .

شيء من ذكريات الاعظمية ومحلاتها الجميلة كما عايشناها

كل مانكتب له أرتباط بالجغرافيا وهي دوماً تسير معنا، هي الجغرافيا التي تبعث من مرقد الأرض لتشكّل ذاكرة المكان، المكان الملاحق لأنفاسنا، حين كنا صغاراً..
وحين أصبحنا نسابق المسافات ونطوي المساحات، المكان الذي تغلغل بأعماق روحنا، فوقفنا على محطات من الزمن، كانت تنتظر وعينا لنمزجها فيه، فيتكون زمان المكان، ومكان الزمان، لنستعيد مع النفس شريط الذكريات ولستظل بحكاياتها الشيقة، بتصوير العراق ومدنه وناسه في خلجان قلبنا المليء بالحب والتقدير والإكبار والإقرار،لو كتبت كل كتابات الدنيا عنهم لما كنت وفيتهم وما كان لهم علي من أفضال، تنوء بأحمالها الأجبال، أتتم الواحة والوميض الذي يجعلنا نستذكر ذكريات الزمان مما يجعلنا نبحر في أعماق الماضي من لعب ولهو وضحك ودراسة لا يمكن أن ننسى عبقها في فؤادنا وهي ترتفع بتصوير جميل يصاحبه موسيقى كلها شجن، وكل المشاهد التي وقفت على ذكرياتها الممتعة والحزينة أحياناً تعود بل نتمنى أن تعود لنراها مرة أخرى يوما ما.

جسر الاعظمية القديم

■سرور ميرزا محمود

وكل المشاهد التي وقفت على ذكرها تبقى شامخة مادام هناك قلوب متفائلة تحن وتعشق تراب البلد الذي أنجبها وأنجب آباءها وأجدادها، سيعود كل شيء في سماءها وفي أرضها من الخيرات وناسها الطيبون، وهناك من الأوقات، أجد أنها الأجمل على الإطلاق، ما يمتزج فيها الألم بالفرح، تمر البسمة ويمر التفاؤل على الألم، فتمسح المعاناة، ويمتص الألم الى سعادة، إنني كلما جلست مع أصدقائي نتحادث ونحاول إستذكار أحوال وحوادث مضت من عمر مضى، أجد نفسي بحاجة الى تصحيح بما يغنيه ويوثقه بالشكل السليم، لكوني كغيري يصيبني الخطأ والوهم أحياناً، خدمة للتاريخ واستذكاراً للحقيقة.
محلة الحارة ليست لانها منطقة حارة كما يتوهم البعض وانما سميت الحارة لكونها محلة صغيرة بالقياس الى بقية محلات بغداد، وهي تحاذ وتحيط مرقد الأمام أبو حنيفة النعمان ومسجده الذي لا يوصف من حيث الروحانية والتكافل كأنه روح أبو حنيفه فيه الان وكتب عنه الكثيرون لورعه وحكمه الفقهي الحنفي نذكر بعض ما قيل عنه، حيث قال ابن خلكان في تاريخه : قبره مشهور يزار، بني عليه المشهد والقبة سنة(٤٥٩)ه وقال ابن جبير في رحلته(وبالرصافة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء سامية في الهواء، فيه قبر الإمام).
وقال ابن بطوطة في رحلته، (قبر الإمام أبي حنيفة (رض) عليه قبة عظيمة، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية ثم عد جملة من قبور المشايخ ببغداد فقال : وأهل بغداد لهم في كل جمعة يوم لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ، ويوم لشيخ آخر يليه، هكذا إلى آخر أيام الأسبوع).
وتضيف محلة الحارة بمكانتها الموقعية والدينية مرقد المتصوف بشر الحافي ومسجده الجامع.
تعد محلة الحارة جزء من الاعظمية التي تعتبر من المدن الدينية ففيهامرقد الإمام أبي حنيفة، ومرقد الشيخ أبي بكر الشبلي الصوفي الكبير، ومرقد الشيخ أبي الحسين النوري، وتحتضن مدرسة الإمام أبي حنيفة التي تأسست سنة (٤٥٩)هـ، فلذلك يقصدها الزوار وطلاب العلم أو العمل من باكستانيين وهنود وأفغان وأتراك وعرب مسلمين، وكان الأمر مألوفا أن تجد بعض طلاب العلم من الدول الإسلامية يجاورون مرقد الإمام أبي حنيفة في الحارة للدراسة والتعلم، وقد مرت أقوام من هؤلاء الغرباء منهم من قام بالزيارة وانصرف ومنهم من مكث فيها للتعلم والتعليم أو طلب الرزق، فطاب له المقام فيها، ولا يمكن عد هؤلاء أو حصرهم، ومنهم من ترك أثراً طيباً في نفوس وعقول الناس ما زال عالقاً في الأذهان، ونذكر بعضاً من هؤلاء:
الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المغربي قدم العراق ١٩٤٧ ودرس في كلية الملكة عالية ثم غادر العراق بعد ثورة ١٩٥٨ توفي في المغرب سنة ١٩٨٧.
سكن في الحارة عندما استقر في العراق، دأب على إلقاء دروسه في مسجد خطاب في منطقة الشيوخ بالاعظمية يومي الاثنين والخميس بعد صلاة المغرب، يدرس فيهما تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف، كان متضلعا باللغة العربية استمر في هذه الدروس ٣ سنوات من ١٩٤٧-١٩٥٠، ثم انتقل إلى مسجد الحاجة نشمية في شارع عشرين بالاعظمية ثم انتقل إلى جامع الدهان قرب ساحة عنتر وقد تولى خطبة الجمعة والعيدين في الجامع، درس فيه شرح السنة للبغوي وهو في علم الحديث، انضم إلى الأخوان المسلمين في العراق ثم انفصل عنهم لتشدده في آرائه الدينية وعلماء بغداد لا يروق لهم التشدد ولا يحبونه مما اضطره إلى ترك الإخوان.
الشيخ علي الطنطاوي السوري زار العراق سنة ١٩٣٦، درس في الثانوية المركزية ومن المحافظات العراقية وفي مدرسة الإمام أبي حنيفة المجاورة لجامع الإمام أبي حنيفة تنقل بين بلدان عدة، ثم استقر به المقام في مكة المكرمة وسكن فيها أكثر من ٣٠ سنة وتوفي بها سنة ١٩٩٩ عرف بولعه لبغداد والاعظمية حتى أنه ألف كتابا سماه "بغداد ذكريات ومشاهد" وقد طبع

عدة مرات، وقد ذكر في مقدمة الطبعة الثانية سنة ١٩٨٩، عن الاعظمية و رجال الاعظمية فقال (هل أجد الشيوخ الأجلة الذين جمعني بهم التدريس في دار العلوم الشرعية، الملحقة بمسجد الإمام الأعظم، الذي سميت باسمه ونسبت إليه مدينة الاعظمية؟ هل أجد العالم الغني الزاهد الشيخ أمجد الزهاوي، والعالم الحقوقي صاحب خزانة الكتب الكبيرة الحاج حمدي الأعظمي، والمفتي الصالح الشيخ قاسم القيسي، ومدير الدار الأستاذ الشيخ معمر فهمي المدرس؟ لقد كنت وحدي الشاب بينهم وكانوا كلهم اكبر مني سنا، خبروني ألا تزال غرفة الأثري في الوزارة حافلة بالصفوة المختارة من أهل العلم والأدب؟ ألا تزال المكتبة في دار الحاج حمدي في السفينة موئل العلماء والأفاضل؟ ألا تزال في دار الشيخ قاسم القيسي على شط دجلة تلك المجالس التي كانت لروحي روحا ولقلبي طربا ..وقد سكن الشيخ علي الطنطاوي في مدرسة الإمام أبي حنيفة حيث يوجد سكن خاص للأساتذة فيها وكان يلقي في بعض الأحيان دروس الوعظ بعد العصر في جامع الإمام أبي حنيفة في شهر رمضان ويقول عن تلك الأيام (كنت أجلس في دار العلوم في الاعظمية كل مساء بأذن المدير، في هذا الصحن المشرق، تظللنا الأشجار الخبز بدون مقابل..
في الثلاثينيات من القرن الماضي دخلت الباصات الصغيرة الموحدة الى بغداد، كان يملكها اشخاص او شركات من القطاع الخاص، ويدخل الخشب كثيرا في هيكل الباص، وفي الداخل مقاطع خشبية لجلوس الركاب، يعمل في السيارة شخصا ثانيا يسمى (السكن) وهو في العادة صبي يساعد السائق على جمع الاجور من الركاب وله واجبات المناداة، كانت محطة التوقف الاخيرة للباص (شارع سعدة)عند موقع بسطة السيدة سعدة، يخترق شارع سعدة مقبرة الخيزران خلف جامع الأمام أبو حنيفة النعمان..
وقسم المقبرة الى قسمين ومدفون بالجانب الأيمن منها أحد علماء المتصوفة وهو الشيخ أبو بكر الشبلي والعالم أمجد الزهاوي والعالم الديني مكي الواعظ والعالم الديني مفتي العراق الشيخ قاسم القيسي، والعالم الديني عبد العزيز الخياط، والاستاذ ساطع الحصري ،والشاعر الكبير معروف الرصافي والشاعر وليد الأعظمي وغيرهم...
وفي الجانب الأيسر دفن رائد المقام العراقي المغني يوسف عمر وهناك الكثير من الرموز العراقية مدفونين هناك وقد اندرست قبورهم عبر تقادم الزمن، شارع سعدة الذي يربط السفينة بمرقد الأمام الأعظم يحوي على البيوت القديمة التي تتلألا بالشناشيل الجميلة والدرابين الضيقة ..
ولابد أن يذكر طرشي ذيب، وجامع حسن بك وجامع صالح أفندي، ومقهى سعيد، ومقهى زكي، ومقهى راس الجسر لخشبي القديم ويسمى مقهى الوتار أيضا وهو صغير شتوي وفي ليالي الصيف تكون طاولات الجلوس في السطح وكان الشباب يلعبون الدومنا والطاولي وأطلالتهم على نهر دجلة.
محلة السفينة المعروفة تأريخيا بسوق يحي وقد سميت بالسفينة، وهي تسمية قديمة ترجع الى أيام الدولة العباسية وكانت مرسى لزوارقهم، وهكذ أستمر الحال، فكان الناس من أهالي الأعظمية يتجمعون على شاطئ النهر لغرض البيع والشراء، يبيعون الصوف والجلود وملحقاته التصنيعة كالعباءات والغزول والخيوط وما الى ذلك، ويشترون من السفن المواد القادمة من الشمال فضلا عن الفاكهة كالرقي والبطيخ وغيرها مما تحمله تلك السفن، من مواد مختلفة، فيتم البيع والشراء ومن هنا يعتقد البعض سميت تلك المحلة نتيجة تجمع السفن بالسفينة.هناك كان جسر خشبي لعبور المشاة والسيارات بين الأعظمية والكاظمية، وكان الجسر متحركا لتسهيل عبور ومرور الدّوب وهي السفن الصغيرة التي تحمل البضائع (إذ كان نهر دجلة عريضاً وعميقاً جدا)، من شمال بغداد آتية من المحافظات. وعندما تصل الى منطقة المسنّاية، التي تعرف برأس الجسر، كان الناس من أهالي الأعظمية يتجمعون على شاطئ النهر لغرض البيع والشراء، يبيعون الصوف والجلود وملحقاته التصنيعة كالعباءات والغزول والخيوط وما الى ذلك، ويشترون من السفن المواد القادمة من الشمال فضلا عن الفاكهة كالرقي والبطيخ وغيرها مما تحمله تلك السفن، من مواد مختلفة، فيتم البيع والشراء ومن هنا سميت تلك المحلة نتيجة تجمع السفن بالسفينة.
الشارع المتجه للمقبرة الملكية من رأس الجسر كان محل التبوغ لعبد المجيد البدري مختار السفينة وهو والد الرياضي المعروف الأستاذ مؤيد البدري ثم يتراء بيتا ترائيا تحول الى مكتبة للباحثين وعاشقي التأريخ والأدب أنهامكتبة العلامة حمدي الأعظمي الذي كان أول من منحه الملك غازي وسام الرافدين وهي أهم وأكبر المكتبات الأهلية في بغداد والتي كان يرتادها رجالات العلم والفضل والأعيان من علماء وادباء فضلا عن الوزراء والوجهاء، كما كانت تعقد فيها امسيات ثقافية،ومقهى الرصافي مجاور للمكتبة وكان الشاعر الرصافي يجلس فيه وهو قريب من منزله وحول المقهى الى دكاكين ومخازن وقسم منه مقهى صغير باسم (مقهى الأفندي) ويأتي بعدها مقهى الجرداغ ومحلات أبراهيم أبو البورك ومن بعده المحل المشهور للأدوات والالبسة الرياضية العائد للرياضي المعروف عوسي الأعظمي.
هذه مسانية السفينة التي يمارس فيها صبيان السفينة هوايتهم بالقفز إلى الماء، والمسنايه عبارة عن بناء كبير في محلة السفينة بالاعظمية غمره نهر دجلة منذ حوالي ٢٥٠ عاما او اكثر وهو بقايا جامع قديم لأن بعض القاشاني الأزرق الذي يستخدم بالجوامع وتكتب عليه بعض الايات القرآنية موجود بالقرب منها .
لقد كانت هنا مجالس اجتماعية و ثقافية تعقد في عدد من البيوتات محورها الأدب و الاجتماع و السياسة فضلا عن السمر و من هذه المجالس مجلس حمدي الأعظمي ومجلس رياضي يعقده عوسي الأعظمي في محله مع رياضي ومحبي الرياضة هناك.
ومن المعالم الأخرى لمحلة السفينة مستشفى النعمان والتي تاسست في العهد الملكي سنة ١٩٤٩وسميت بمستشفى المقبرة الملكية وقدمت الخدمات الطبية لسكان الاعظمية ومجاورها من المناطق الاخرى وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ سميت (مستشفى النعمان الجمهوري) بعد دمج مستشفى الحريري للولادة والامراض النسائية وسميت بمستشفى النعمان العام ولحد الان، أكثر أولاد الأعظمية تم ختانهم هناك، كما انهم ولدوا هناك، بعد الحادثة التي وقعت في ٣١ اغسطس من العام ٢٠٠٥ التي أدت إلى وفاة المئات من المواطنين أثناء عبورهم الجسر لتأدية مراسم الزيارة لمرقد الإمام موسى الكاظم، نتيجة التدافع والازدحام. ففي تلك الحادثة الأليمة تجلت الوحدة الوطنية في أروع صورها، حين نزل العشرات من شباب الاعظمية إلى نهر دجلة لينقذوا أشقاءهم الزائرين من الغرق، بعد ان سقط المئات منهم في النهر، وسجل الشاب البطل والغيور والذي لم يتعد العشرين من عمره عثمان علي العبيدي من محلة «السفينة» العريقة موقفاً سيظل في ذاكرة العراقيين، حين اندفع بكل ما أوتي من قوة الشباب لإنقاذ النساء و الرجال والأطفال، قبل ان تبتلعهم مياه دجلة، واستطاع انقاذ أرواح ستة منهم، الا امرأة غارقة أبت عباءتها إلا ان تلتف حول هذا السباح، ويلقى حتفه، ليتحول هذا الموقف إلى عنوان ملحمة للتماسك الاجتماعي والوطني بين العراقيين.
ويومها بذل أهل الاعظمية موقفهم البطولي والأنساني فحملوا الجرحى إلى مستشفى النعمان بسياراتهم وحملوا الماء والطعام للزوار، وعلقوا لافتات الحزن والتعاطف مع إخوانهم الزوار على جدران جامع الإمام الأعظم.
في عام ١٩٥٤ أقدمت نخبة من رياضيي الاعظمية وأسست ناديا رياضيا خلف المقبرة الملكية يقع على نهر دجلة قرب مستشفى النعمان سمي في وقتها بنادي النعمان الرياضي، أخذ النادي على عاتقه مهمة احتضان المواهب الرياضية الشابة ورعايتها وتأهيلها لخوض البطولات المحلية والعربية والاسيوية، وهو ينافس نادي الاعظمية الرياضي في كثير من البطولات ككرة القدم والسلة والسباحة بأنواعها والمصارعة والملاكمة وكثير من الالعاب ورفد المنتخبات الوطنية وبكافة الالعاب بابطال شهدت لهم السوح الرياضية في الداخل والخارج، وقد افل نجم هذا النادي وتغيب في الثمانينات من القرن الماضي بعد ان وقعت مساحة منشأته ضمن مخطط انشاء جسر الاعظمية.
هناك أبطال في المصارعة قسم منهم لم يسكن المنطقة وأنما تواجد فيها طيلة فترات نموه الرياضي والأداري ومنهم البطل مجيد ليلو والبطل كمال عبدو والبطل خلدون عبدي والبطل رحومي جاسم والبطل بهاء توفيق والبطل مهدي وحيد.
شهدت محلة السفينة تصوير الفيلم الثاني في مسيرة كاميران حسني هو (مشروع زواج) المعروض في سينما النصر ببغداد في ١٥ آذار ١٩٦٢ وكتب كاميران القصة والسيناريو والاخراج في أن واحد فيما كتب له الحوار عبد الجبار توفيق ولي وادار تصويره نهاد علي ومثل بطولته كل من الفنانين فخري الزبيدي والهام حسين وناجي الراوي وقدوري الرومي ورضا الشاطئ وهو اول فيلم كوميدي عراقي تدور احداثه في محلة السفينة قرب الجسر القديم من خلال مجموعة من الحكايات الضاحكة المرتبطة بمشروع زواج احد ابناء المحلة.
أحتفظت محلة الحارة وشارع سعدة والسفينة بأثر لكل ولد من أولادها الذين مروا و عاشوا و ترعرعوا في قلبها و أرضها، فمن بيوتاتها وشوارعها الجانبية التي تتحدث عادة ما تكون أما واسعة أو ضيقة وصغيرة مع واجهات جميلة وشرفات، تغطيها الشبابيك، ومساجدها ومقاهيها وحديقة حاج بصرة و أطلالتها على نهر دجلة الخالد والى جامع أبا حنيفة النعمان والى مقبرتها العتيدة والى أسواقها لها فعل الشرايين التي تغذي الجسد الأعظمي كاملا قريبها وبعيدها بوشائج تؤكد القربى وتصل عضو الجسم بالجسم حتى لتحس أنها جسدا نابعا بالحياة مدى الحياة فترى المساعدة والتزاور والمشاركة في المناسبات الدينية والأجتماعية ، جسدا يضرب في أعماق الأزل بعض جذوره ويطلق فروعة نحو الشمس يعانق الأبد بعطاء هو الضوء و الألق هو عطاء هذا العراق صاحب الأنسانية للوجود البشري وما آل اليه الآن.

جامع الامام الاعظم في الثلاثينيات

بغداديات..
محلات بغداد وطرائفها في الجيل الماضي

■الدكتور مجيد القيسي

(ألسطرف) في المعجم هو ناحية الأرْض. والجمع (أطراف). وهي التي غالبا ما تتطرف عن المكان وتبتعد عن المركز. و(الطرف) هو ايضا الطائفة من الناس. و(أطراف) الرجل أخواله وأعمامه وكل قريب له محرم. وأخيرا (أطراف) الطعام وما يضاف اليها من وأشرافهم.

ولا غرابة بعد ذلك أن يلهج معظم البغادة بإسم (المحلة) الذي كان معروفا أيضا على المستويين الشعبي والرسمي.

وكانت أطراف مدينة بغداد ومحلاتها تنتشر حول (سراي الحاكم) اي بناية (السراي) الحالية ؛ قربا او بعدا عنه ؛ سواء كان عثمانيا او عربيا. فتجمعات الدور التي تسكنها الفئات الإجتماعية الراقية والمتوسطة تكون عادة قريبة من مقر الحاكم في بناية (القشلة) المطلة على نهر دجلة. وكان الأسم الأكثر تفضيلا لدى هؤلاء هو (المحلة). ونذكر على سبيل المثال: محلات (جديد حسن باشا والحيدرخانة والعاقولية والصابونجية والطوب ورأس الكنيسة والعلوارْية). اما الفئات ما دون المتوسطة وفئات العمال والكسبة فكانوا يسكنون في الدائرة الأوسع حتى حدود أسوار مدينة بغداد القديمة ؛ بل وخارجها أيضا. مثال ذلك أطراف (صبابيغ الآل والعوينة والعمّار وكمب الأرمن وباب الشيخ وعكد النصارى وبني سُعيد وقنبر علي وابو شط وأكيدات وأبو سيفين وقاضي الحاجات والطاطران وفرج الله والخالدية والبو مفرج والشيخ عمر وعزات طوالت وفضوة قره شعبان والجوبة والمهدية والفضل والباروضية والسور). هذا في جانب (الرصافة).

أما في الجانب الأخر من النهر ؛ اي جانب (الكرخ) ؛ فكانوا ينتشرون على الشاطئ ؛ وقريبا منه. من ذلك أطراف (الكريمات والشواكة والسوك الجديد وسوك حمادة والست نفيسة والشيخ بشار والشيخ معروف والجعيفر والفحامة والدوريين والشيخ صندل والرحمانية والأرضرملي وعلاوي الحلة). وكان هؤلاء جميعا يفضلون إسم (الطرف) على (المحلة) ؛ وخصوصا حين يتسامرون او يتحدثون فيما بينهم ؛ لما في ذلك من وقع تراثي وتقاليدي جميل في النفوس.

وكانت هنالك أيضا (أطراف) ومحلات كبيرة خارج اسوار مدينة بغداد مثل الأعظمية والكاظمية والكريعات والفحامة والراشدية والبتاويين والكرادتين. ولها جميعا سماتها وعاداتها الإجتماعية المتميزة وتسكنها فئات متنوعة من الناس.

و(الطرف) وحدة إجتماعية متماسكة ومتكافلة تشد افرادها روابط العشيرة او القبيلة او الجيرة الطويلة او المصاهرة. هذا فضلا عن دور المصالح والأهداف الإنسانية المشتركة ؛ وفي مقدمتها الحفاظ على الروح الوطنية المناْجدة التي جعلت من (الطرف) بذرة حية في تكوين المجتمع والدولة. ونحن لو تفحصنا أصول وقوميات وديانات ومذاهب كل (طرف) لوجدناها متنوعة ومتلونة بألوان الطيف العراقي الجميل. فهناك المسلم والمسيحي واليهودي والصابئي. وهناك العربي والكردي والتركماني. وهناك أيضا السني والشيعي ؛ وهما صفتان مستترتان لم يجرأ أحد على التنابز بهما علنا إلا بين البعض من المتخلفين من الناس. ويتحدث جميع هؤلاء اللغة العامية البغدادية الجميلة ؛ كلا بلهجته او بلكنته الخاصة.

مثلهم كمثل مصابيح الزينة حين تنشر أضواءها المتلألئة والملونة في كل مكان. فكان الجميع يشاركون في المناسبات الوطنية وفي الأفراح والأحزان من غير حرج او قيود. ولعلي أذكر هنا كيف كانت نسوة (طرف البوشبل) يصبغن ملابسهن وملابس أولادهن بالصبغ الأسود قبيل (عاشوراء). ثم يهرع الجميع للمشاركة بإحتفالات العاشر من محرم في محلة الدهانة او الصدرية للتفرج على (السبايات والتشابيه) التي تصف ماحدث لأمام الحسين وآل بيته من نكبات.

ولعل مما يشير الى تلاحم أبناء (الطرف) الواحد تلك الصور الجميلة حين كنا ننذب جميعا لحضور (موكب العزاء) الذي تقيمه (نقابة السرّاجين) في (سوق السراي) ؛ أعوام الأربعينات ؛ لنستمع الى الشيخ الوقور (كاظم آل نوح) وهو يتلو قصة الإمام الحسين وأحداث مفيدة وذات عبر ودروس من التأريخ. ولم يكن غريبا يومها أن يصحبنا شبان (يهود) من (الطرف) لحضور تلك المناسبة الدينية الغالية. او لحضور إحتفال جماهيري لإحياء تلك الذكرى العزيزة علينا جميعا ؛ حيث نستمع الى شعر وخطب من الشخصيات الوطنية المعروفة التي تشيد بثورة الإمام (الحسين) وأهدافها النبيلة في إقامة حكم العدل والمساواة بين الموطنين.

ويتذكر آباؤنا وكبار السن من البغادة كيف كانت المظاهرات والإنتفاضات والوثبات تنطلق من (الأطراف) لتغطي شوارع بغداد وهي تهْتف للتحرر وللإستقلال وطرد المحتل ؛ تركيا كان أو إنكليزيا. وكان يتقدم المتظاهرين رؤساء الأطراف وقادة المحلات ووجهاؤها ورجال الدين والشباب الواعي المتوثب وهم يحملون الرايات الخاصة وينقرون بالدفوف ويضربون بالطبول والدمامات التي تختلط أصواتها بزغاريد النسوة البغداديات الأصيلات من سكان تلك (الأطراف) من الفقراء والكادحين المعدمين فكان الحصول منهم على الرسوم او الأجور يعد نصرا مؤزرا للجابي المسكين. واول ما يطرق الباب تخرج اليه المرأة البغدادية التي عركتها حياة الضنك وتخشب أن الخصال الجميلة المذكورة كانت تنتشر في (الأطراف) المتنحية عن (الجادات) العامة او الفضوات ؛ وخصوصا تلك التي تشق مساكنها البسيطة (دراببن) مغلقة وأزقة ضيقة قلما مر بها الغرباء من دون أن يلفتوا نظر أبناء (الطرف) ؛ وأحيانا شكوكهم ومخاوفهم.

وكثيرا ما تحدث مشاكل ومقالب مع هؤلاء الناس بسبب بيئة (الطرف) الإجتماعية المحافظة ؛ ونظرا لطبيعة ومهام ومهن الناس الذين تقودهم أقدامهم بالصدفة الى تلك (الأطراف). وقد يختلف ما يتعرضون له تبعا للظروف.

فـ (البليص) و(أبو الويركو) غير مرحب بهما لكن (السقا) يدخل الدار بالإستعانة بالله و(النحنحة). ولما كان هذا الموضوع واسعا ومتشعبا فسوف اقصره على بعض النماذج الطريفة او المؤلمة أحيانا ؛ مبتدئا بأؤلئك الذين يحملون صفات رسمية كجباة الرسوم البلدية (الويركو) والشرطة (الكليصية) والإنضباط العسكري (الإنضباطية) ورجال الأمن الذين يسمونهم بالجواسيس والذين كانوا أكثر تعرضا للمهانة من قبل شبان (الطرف) السياسيين او شقاوته. ولما كانت أكثرية سكان تلك (الأطراف) من الفقراء والكادحين المعدمين فكان الحصول منهم على الرسوم او الأجور يعد نصرا مؤزرا للجابي المسكين. واول ما يطرق الباب تخرج اليه المرأة البغدادية التي عركتها حياة الضنك وتخشب عودها الطري وهي تصرخ في وجهه: (يافتاح يارزاق ...إشرايدْ من الصّباحيّات...؟!). وقبل ان يكمل كلمة (ويركو) تدخل الدار وهي تدمدم (اصْطبرْ لما أجيبلك الطاوة...؟!).

فيلوذ الجابي البائس بالفرار. ومثل هذا المشهد كثيرا ما يتكرر مع سكان الدور الأخرى. وإذا ما تجرأ الجابي وجلب معه (الكليص) للإستقواء به فيكون حظه كحظ الجابي المسكين.

وكنا نشاهد (الأنضباطية) وهم يطاردون الهاربين من العسكرية (الإفرارية) وأصوات الرصاص تلعلع في الجو. وإذا ما دخل (الإفرار) (الطرف) ودلف الى أحد الدور فإنه يختفي وكأنه (فص ملحْ وذابْ) نظرا لتراص الدور وبساطة بنائها. ولا فرق هنا بين ابن (الطرف) والشخص الغريب. فحق (الدخالة) حق محترم ومكفول للجميع. وكنا نشاهد هذا السلوك التقليدي القديم بأجلى صوره حين يحتمي (المتظاهرون) او (السياسيون) المطاردون بدور البغادة تخلصا من رجال الأمن. وهيهات أن يتعقب هؤلاء الشخص المطارد حتى داخل الدار والإ تعرضوا الى الصد بقوة وربما ألى الإهانات.

وليس ببعيد ان تحدث أحيانا معركة حقيقية بينهم. فكثيرا ما شاهدنا (الإفرار) وهو يطلق الرصاص على (الإنضباطية) من (ورورة) او يقذفهم بالحجارة من فوق السطح. وأحيانا يدفع بالستارة أو (التيقة) المتهالكة عليهم.

ولم يكن من المألوف ان يقتحم (الإنضباطية) المساكن لمطاردة (الإفرارية) ما لم يكن لديهم أمر حكومي بذلك ؛ وبوجود المختار. مما يشير الى أحد أبرز معالم نظام الحكم في العهد الأهلي او الوطني ؛ وهو المتعلق بسيادة القانون وأحترامه من قبل أجهزة الحكومة قبل المواطنين.

ولعلي أذكر هنا بعض المشاهد الطريفة عن الحقد الدفين الذي كان يضمره سكان (الأطراف) نحو رجال الأمن ؛ أي الجواسيس ؛ سواء في العهد التركي او الوطني. فلم يكن من اليسير يومذاك تجنيد أحد أبناء (الطرف) ليتجسس عليهم. فهو عار ما بعده عار.

وكان الجاسوس المشتبه به إذا قصد (كهوة الطرف) مثلا فـأن جميع روادها يديرون رؤوسهم نحوه وهم يرمقونه بسهام نظراتهم الحاقدة. وقد يتعمد (الهاجيي) إهماله ليجد نفسه وحيدا ومنبوذا ؛ فيترك (الكهوة) وهو يردد مع نفسه: (خلي أمشي .....كبل مْتخنّخ).

أما اذا تجرأ أحد المشتبه بهم من الجواسيس ودخل أحد أزقة (الطرف) ؛ فقد يخرج منه وقد شوهت معالم وجهه وقد بعض أسنانه من (الكلاك). و(الكلك) لمن لم يسمع بها هو نطح وجه الخصم بالرأس !.

وقد أذكر مثالا أكثر طرافة وحذقا مما يدل على تضامن جميع أبناء (الطرف) مع الشبان السياسيين والوطنيين. فقد رأيت ؛ وفي عدد من الحالات ؛ فريقا من رجال الأمن وهم يأتون الى دار (المختار) مساء ومعهم أمر حكومي بتفتيش أحد الدور لإلقاء القبض على شاب معروف من المشتغلين بالسياسة أو بالشأن الوطني. وهنا يبدأ (المختار) ؛ وهو شخصية محترمة ومهابة ؛ بإلهائهم لبضع دقائق ؛ لكي يلتقط أحد أبنائه او أحفاده الصغار الإشارة المدرب عليها ليتسلل من الدار خلسة وينطلق كالسهم الى دار ذلك الشاب لتحذيره. وليجد بعد ذلك رجال الأمن: (إيديهمْ والكاغْ !).

أما المستطرقون الغرباء ومن دمن تبدو عليهم علامات الإرتباك والضياع ؛ فقد يتعرضون للمساءلة من قبل أبناء (الطرف) ؛ وخصوصا من (النسوان العجايز) ؛ ولكنْ بكل لطف: (أشو تعال هنا..... إنتَ إلمنْ رايدْ..؟!). وعلى الشخص ان يكون بشوشا ولبقا ؛ فيختار جوابا مقنعا ؛ وإلا تعرض الى ما لا يسره. والإجابة وهم يرددون: (جا بابا...جا بابا).

ومن أجمل تقاليد (الطرف) حين نشاهد النسوة وقد تجمعن عند أبواب الدور او في (المجاز) عصر كل يوم ليتناولن (إستكان الجاي) ويأكلن (الكليجة) او (يكرزن الحُب) ؛ ويتبادلن الأحاديث الخاصة والعامة ؛ حيث تتكرر العبارة المألوفة: (أحچي المعزوزة عيني أم ستار.... ولتهوْن أم برهوم وأم يعكوب). وبين الحين والأخر تعيد المتحدثة العبارة المألوفة (أوي.. نسَيتوني إشْ جنتْ دا أحچي !).

لكثرة المواضيع المطروقة وتشعبها ؛ وأحيانا (القشب). ومما أن تغيب الشمس حتى تدخل كل منهن الدار لإعداد وجبة العشاء لأزواجهن ولأفراد الأسرة بكافة. وهنا نلاحظ روح التكافل الإجتماعي بأبهى صوره

فهذه (أم ستار) تدعو طفلها لأيصال (ماعون كبة الحامض) قائلة: (هاك ولبدي ودّي الطعمة لمْ عبود...خطية هذي مرة مْتطوعة).

وتلك (ام برهوم) تحمل بنفسها صينية الأكل الصغيرة الى دار (سالم أفندي) الأرمل. ونرى (أم رزاق) تبعث بأبنتها الى دار (أم فلاح) لطلب (تركْة ملح). وهنا تنتهز(الإبنة) الفرصة لتمر على بيت (إسحاق) لتأخذ حصتها من (السمبوسك) اللذيذ.

فتبادل الطعام أو (الطعْمة) إذاً تقليد بغدادي عريق ؛ الهدف منه الحفاظ على روح الأسرة والجماعة وإطعام المحروم ؛ وكذلك تنويع السُفرة. فالدار التي يطيبْ أصحابها (التمن والمَرق) فقط يجدون على سُفرتهم عدة أنواع من أللطيبخ والحلوى. وتزداد تلك الفعاليات الجميلة في شهر رمضان المبارك وأيام الأعياد.

ولعل من أكثر أوجه التعاون والتكافل قيام أصحاب المهن والصنائع بإصلاح الأعطال في الدور. فقبل حلول الشتاء وموسم الأمطار مثلا (ترش) السطوح بالطين المخمر الذي يتعاون على (جبنه وتخميره) (عمّالة الطرف) وأمام الدور. وكثيرا ما يسقط في (الطينة) السكارى حين عودتهم من (الميخانات) عند حلول الظلام. فتطير (نشعة) السكران حين تستقبله زوجته بالشتائم وبالنعال (!).

أما أدوات وعدد المنزل ؛ وهي غالبا ما تكون متواضعة مثل (البريمز) و(لمكة النفط – الجُولة) و(اللالة) او (الأوْيزة) و(الفانوص) و(مكينة الخياط) و(عُكة الدهن) ولوازم المطبخ الأخرى. والجميع يتعاونون على إصلاح أعطالها. او أن يستعينوا بالمصلحين الدواريين مثل (چراخ الصچاچين) و(خياط الفرفوري) و(النـدّاف). اويتخلصون منها ببيعها إلى (بياع البيع او العتيك).

أما إحياء المناسبات الإجتماعية مثل (مولود النبي) و(زكريا) و(المحيا) و(الحج) و(الطهور) و(الزواج) وختم القرآن عند الملا والنجاح في المدرسة والتسريح من الجيش او من (الحبس) فقد أولتها (الأطراف) أهمية خاصة لكي يستمتعوا بها في بيئة محافظة ومنغلقة ؛ حيث نجد وسائل اللهو البريئة والأفراح فيها محدودة.

أما أكبر تلك المناسبات فهي الزواج ؛ حيث تنصب (الإسكملیات) في (الفضوة) قرب الدار. وعادة ما يشترك الجميع في إنجاح الحفل الذي إما أن يكون (كعدة عائلية خاصة) او (دومة) او (مولود) او (حفلة مقامات عراقية) يحييها الجالغي البغدادي الذي يتكون من اشهر العازفين اليهود الذين كانوا (برنجي) في العزف على السنطور والجوزة والدف والطبلة. وتبدأ فعاليات (الدومة) بالمربعات والبستات وبعزف الفرقة الموسيقية الشعبية. وأحيانا نرى (الشعّار) وهو يرقص على الأنغام وتصفيق الحضور. حيث تعلو أصوات الفتيان اليافعين بين زغاريد النسوة من (الحديثات) اللواتي يتطلعن الى مستقبل زاهر وإلى بيت الزوجية السعيد. ولم يكن الإختلاط المتواصل للفتيان بالفتيات ممكنا يومئذ. لكننا كنا نشاهد الفتيان وعيونهم مسمّرة نحو السطوح المحيطة بالحفل ؛ كل يبحث عن محبوبته (الإفتراضية) وسط الظلام ؛ عله يحظى بحركة من يد او من خفقة سريعة من (چفية) بلون معين !.

أما (المولود) او(حفلة المقام) فقد كانت الإختيار المفضل لدى الأسر الوجيهة. وغالبا ما تقام في دار الوجيه الواسعة. ويبدأ (المولود) عادة بالإفتتاحية التي يؤديها المقرئ او (الملا) ؛ وليوصلها ببعض المقامات الشجية. ثم يأخذ الدور (الرُواديد) الذين يقودهم (الخلفة). بعد ذلك يأتي دور مقرئ المقامات ليكمل الفصل المقامي الذي بدأه (الملا).

وقد ينتقل الى مقام آخر. ويعد الفريق الذي يتألف من الفنان (الكبير (محمد الكبنجي) والملا مهدي البصير) او الملا (عبد الفتاح معروف) من أشهرها لكون الشخصيات الثلاث يعدون من أساطين المقام العراقي. اما (حفلة المقام العراقي) فكان يحييها عادة قارئ واحد بمصاحبة (الجالغي البغدادي) العتيد.

ومما كان يميز حياة (الطرف) أيضا تنوع مهن وصنايع وخبرات سكانه. لا فرق بين رجل وإمرأة. فالجميع يعملون او يؤدون خدماتهم إلى أبناء (الطرف).

فدار يختص بصنع (الچكاير المزبنة) ودار يصنع (الدبس) وهم (البزّارة)، وآخر يصنع (الطرشي) او (الكبة) او (الباجلا). وفلانة تعمل (خيّاطة) او تحيك (ليف الحمّام) ؛ وفلان مصلح الأسلحة وهو (الجخمخچي). وقد اختص اليهود بـ (البزّارة) و(العطارة ومعالجة المرضى) و(منح القروص) و(الغزل) وهم (القتالون) و(مبادلة السلع) وصنع (الدنابك) و(الودندرمة او البيزر). أما النصارى ؛ وخصوصا الأرمن ؛ فقد تخصصوا بإصلاح الآلات الدقيقة. وأكثر ما كان ابن (الطرف) بحاجة إليه هو (العلاج) حين يصاب بعارض مفاجيء او يبتلى بمرض شديد. فهو قلما يلتجيء الى (قصطخانة المجيدية) او الطبيب إلا بعد ان يجرب كل إمكانيات الطب الشعبي أويشارف على الموت. وهو ما سنفصل فيه قليلا.

وكان من أجمل مظاهر التعاون والتكافل بين نساء (الطرف) تبادل إيداع الأطفال عند غياب الأمهات وإرضاعهم عند الحاجة. وتشترك جميع النسوة بذلك بغض النظر عن إختلاف دياناتهن. وكان للنساء أيضا دور رئيس في ممارسة الوسائل الشعبية في العلاج . فمن تدخل في عينه ذرة من نشارة خشب او من التراب او (بليزة) من غبار الطريق او يتوجه إلى (حجية سْعودْ) التي أول ما تقوم به أن تمسك برأس المصاب فتدخل لسانها في عينه المصابة حتى تلتقط الذرة بلمح البصر. فتريها اليه ليطمئن قلبه.

و(حجية سعود) مختصة ايضا بعلاج اللوزتين (اليلاهيم). حيث تأتي المريض من الخلف فتبدأ بتدليك اللوزتين مع الضغط إلى أعلى. ثم تكرر العملية لعدة أيام ؛ وترتبط فكه بعصابة حتى يشفى تماما. وكل ما تقوم به (الحجية) او غيرها هو صدقة جارية في سبيل الله.

أما الحالات التي يتعرض فيها الأطفال الى حالات من القلق والآلام المجهولة التي تؤدي الى البكاء المستمر فنرى أهْل يأخذونه الى (إبن ملا جواد). وهو رجل تقى ومن الأخيار الذين يأخذون بالطب النبوي والطب الشعبي. وبفراسته المعهودة يمكنه أن يميز بين المريض التقليدي وبين المصاب بعرض نفساني عابر (المخزة). وهنا يكتب له (رقية) ويصف له بعض الأعشاب كـ (الورد ماوي) و(اليسنون) و(البابونك) ودهن الخروع. ثم يطلب من الأهْل ان يصبوا (الرصاص) فوق رأس الطفل لمعرفة خطورة الأرواح الشريرة التي تلبسته. وتتم العملية بأن يقوم الأهْل بصهر كمية من الرصاص وسكبها بسرعة في إناء ملئ بالماء يوضع فوق رأس الطفل ليتصلب فجأة. ثم يأتي هنا دور تشخيص شدة الإصابة من عدد البروزات (الشناديخ) في كتلة الرصاص. اما الصداع والآم الرأس فعلاجها عند الشيخ (السيد محمد) ذي الطلعة البهية ليقرأ على رأس المريض آيات من القرآن الكريم ويسقيه شربة ماء قرأ عليها آية الكرسي. او قد يقترح ان يذهب المريض الى (حجية مريم) خبيرة (الحجامة) لتحجم له.

أما أوجاع الأسْنان فمكانها دكان الحلاق (عبود) الذي هو (الزعرتي) اي (الخَتّان) في ذات الوقت. وكان له أسلوبه الساحر في إقناع الصبية الكبار بتسليم أنفسهم الى مشرطه وقرّاصته. وكثيرا ما تحصل مفارقات طريفة هنا حين يكتشف الصبي بأنه معرض لعملية مزعجة وموجعة ؛ فتراه يطلق ساقيه للريح كالسهم نحو الشارع والكل يطارده للإمساك به.

حتى يجلب مكتفا من منطقة (الشيخ عمر) الى داره في (أبو شبل) (!) وهو يتوسل ان يتركوه وشأنه. ولفقْر الدم علاجه عند (الصّلبة) المعروفين حيث يقوم هذا بكي أحد الأوْردة (العروق او (بِدمارات) في ظهْر كف الشاكي بواسطة (العطابة). وتسمى هذه العملية (التخويف). وما زالت آثار الكي ظاهرة في كف (الكاتب) حتى اليوم. اما من تحصل له كسور فيهرع الى المجبر الحاذق (الحاج أحمد) في باب الشيخ – محلة (الكَرد) لتجبير كسوره. وفي جو يسوده الرعب والترقب ؛ ووسط الإلتهابات الزائفة. وترى المريض هنا وقد فقد القدرة حتى على الشكوى والبكاء. وكثير من الإصابات العابرة يتم علاجها من قبل الأسكان أنفسهم. فمن يتعرض للرضوض يعالج بأن يوضع على المكان المصاب (فطيرية) ساخنة ؛ وهي عجينة تقلى بالزيت. وتعالج الدمامل المتقيحة بتغطيتها بعجينة (الحب دبّ) او (البلنكو) التي تعد بالمضغ. وتأثير هاتين العجينتين سريع وفعال. أما طرد الغازات التي يعاني منها الأطفال الرضع فيتم بإعطاء الطفل (السفّوف) وهي خلطة من الأعشاب العطرية الطاردة للريح. وتستخرج الحشرات من الأذن بتقطير الزيت الدافئ فيها. ويعالج المصدور او المسلول بأكل سمك (الجرّي) والتفسح في الهواء الطلق. أما الأقرع فيطلى رأسه بالزفت او النفط الأسود. اما لسعة الزنبور او العقرب فينفخ لها النفط الأبيض ؛ أو يوضع حجر خاص (ربما حجر السليماني) وقراءة التعاويذ. وللرّكام و(النخشلة) يوصف شم البصل والثوم وأكله

او شم بخار (اليوكالبتوس) والنعناع. أما في حالة الضعف الجنسي عند الشباب فعلاجه عند (الشيخ) او (السيد) ؛ او يؤخذ عادة الى أحد الأضْرحة لربطه الى القفص ليفك الولي (رباطه) ويبطل السحر او (العمل) المعمول له. وللعلم القول بأن الحديث عن الطب الشعبي الذي كان منتشرا بين سكنة (أطراف) بغداد حديث طويل وشائق....لكنه أيضا ملئ بالآلام والأحْزان.

اما في حالة المرض الشديد فعادة ما ينقل المريض الى (قصطخانة المجيدية) او الى الطبيب الأهلي.

عدسة ذاكرة

عراقية

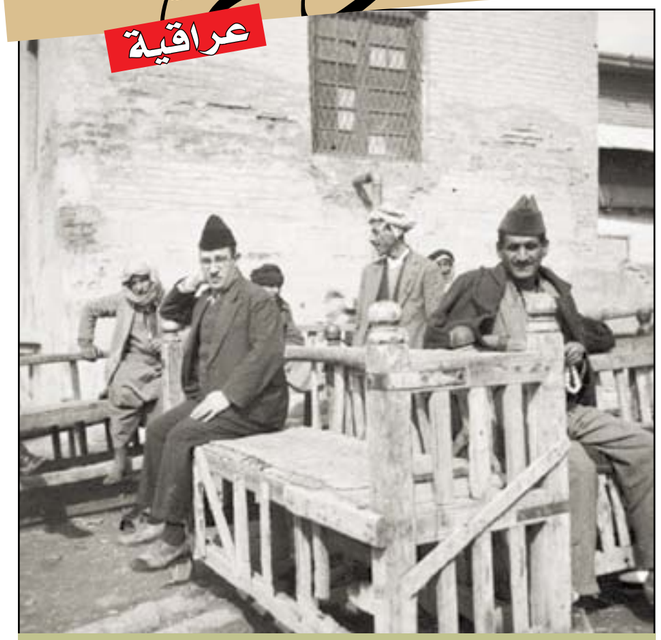

مقهى بغدادي قديم

شرطة دهوك في الاربعينيات

ساحة الشهداء في الخمسينيات

مدرسة دينية للبنات في الموصل

شارع الرشيد ١٩٤٦

سوق الاسربادي

دفتر ذكريات عبد الوهاب البياتي

شارع السعدون في أوّل الستينيات

-١-

في طفولتي كانت علاقتي بالقرية أكثر من علاقتي بالمدينة، لأنني كنت أذهب مع والدي في العطل الصيفية الى الريف حيث السماء الزرقاء وحقول القمح المترامية الأطراف والطيور بكافة اشكالها، فكنت أتوحد مع الطبيعة ومخلوقاتها التي قلما كنت اراها في المدينة. وعندما قل ذهاب الى القرية صيفا بعد صيف لأن والدي كان قد شغل بأمور اخرى ولم يعد يجد وقتاً لزيارة اخوته وأعمامه، واجهت في تلك الآونة محنة اكتشاف المدينة واكتشاف اسرارها ومعراتها السرية وضواحيها، والخيوط الخفية التي تربطها بالماضي.

كانت بغداد ولا تزال تحمل في وجهها عذرية الزمن وعطره، ورائحة الضباب، والمآذن الشاخصة التي ينتمي بعضها الى العصر العباسي وخاصة العصر العباسي الاخير، كانت تستهويني فكنت اطوف حولها، كما كان المشوارع بمثابة فك مدينة بغداد، كنت اقرأ الشواهد المدونة على متونها واكتشفت في احدى جولاتي ان البعض قد ازاح بعض المتون ومحاها بغية كتابة تواريخ اخرى مزورة وأسماء لا تنتمي الى العصر الذي فيه هذه الآثار الباقية. وكانت مقبرة الإمام الغزالي التي تقع بالقرب من محلة باب الشيخ التي ولدت فيها في بغداد احدى محطاتي وبخاصة قبيل الغروب، حيث كان يلتقي بين القبور أو على أطراف منها بعض الاعراب الذين جاءوا المدينة ليبيعوا اغنامهم وبعض الباعة الصغار الذين كانوا يسرقون بعض ما يحمله هؤلاء الإعراب ويفرون به كما كان البعض يبيع طيورا بأقفاصها أو بدون أقفاص وهي مربوطة بخيوط بالية.

أما المحطة الثانية في تجوالي فقد كانت بعيدة نسبياً وهي مقبرة السهروردي حيث تقع بجوارها مقابر اليهود وكان القدم يظهر على هذه المقبرة من رائحة التربة والحجارة وبعض الاشجار الهزيلة التي كان يحتطبها الفقراء.

كنت أقف قبالة مسجد المقبرة الذي كان شبه مهجور وأحاول استقراء ما جرى له دون جدوى وكنت أحياناً أسأل بعض سكان القبور الذين لا يعرفون شيئاً، وعندما كنت أعود الى البيت كنت ألوذ بجدي لكي يشرح لي بعض غوامض ما رأيت وما شاهدت، وأحياناً وأنا أعرج على هاتين المحطتين أذهب الى نهر دجلة من الباب الشرقي لبغداد وبخاصة أيام الفيضان حيث كان النهر محصناً بأكياس الرمل خوفاً من غرق المدينة، وما أكثر ما كان الماء يعلو ويطفو فوق الأكياس وينساب إلى الشوارع والبيوت فكنت عندما يبلغ النهر هذا المستوى تلقي القبض على كل من يمر بالشارع لأخذه للسخرة، وكان مشهداً مؤلما حيث كان البعض يشكو من انه ذاهب لشراء دواء لوالده المريض.. ولكن الشرطة كانت تقسو ولا تسمع هذه الاحتجاجات.

-٢-

كنت أرى الكثير من الأجانب الذين يزورون قناصل الدول الاجنبية يطوفون بسياراتهم ليراقبوا الفيضان وكان بعضهم يثقبه ويضحك على منظر الذين تختطفهم الشرطة لتأخذهم الى الأماكن التي تختزق فيها مياه النهر ضفافه وكم كنت أتمنى لو كنت أملك القوة لأمنع هؤلاء الذين كانوا يسخرون من المدينة وبؤسها وتعرضها للخطر.

في فجر أيام العيدين: عيد الأضحى وعيد الفطر كان معظم سكان بغداد في تلك السنوات يذهبون لزيارة موتاهم في قبورهم وكانوا يحملون بعض الاطعمة ليقدموها الى الفقراء الذين كانوا يجتمعون بأعداد كبيرة هناك وعندما كنت أعود مع جدتي وأمي أجد جدي وهو يعد فطور الصباح ويهيئ قهوته وأرجيلته وكان يسألني وهو يبتسم: كيف كانت الأحوال، فأبتسم أيضا دون أن أجيب. وذات صباح عيد سألت جدي قبل أن يتحدث معي: لماذا لا نزور أقرباءنا الفقراء بجانب زيارة أقاربنا الموتى، وكان يقول لي إنك عندما تكبر سوف تفهم السبب وتتألم كثيراً. كان يغير الحديث فيقدم لي كتابا ويقول لي هل قرأت هذا الكتاب فأقول له إني قرأت بعض سطوره بدون استئذانك ولم أفهم شيئا فيقول لي اختر بعض الجمل منه التي لا تستطيع فك حروفها حتى أشرحها لك وكنت لا أفهم شرحه أحياناً ولكنني كنت أدعي الفهم خوفا من سخريته المبطنة. ويظهر أن بعض البشر يريدون ان يفهموا من الآخرين كل شيء بغض النظر عن عمرهم.

في امتداد شارع الكيلاني الذي يتصل بشارع الرشيد كان هناك «مسجد الخانّي» وكان يضم مكتبة كبيرة جداً تضم مختلف الكتب، حتى الحديثة مثل مؤلفات طه حسين وأشعار شوقي والرصافي وعشرات الأدباء العراقيين والعرب، وقد هدأني إلى هذه المكتبة صديق العمر الكاتب القصصي الراحل غالب طعمة فرمان فذهبت الى أمين المكتبة وقال: ماذا ستفعل بهذا الكتاب، قلت له لا أدري ولكنني سأروي لك نكتة عن مؤلف هذا الكتاب، هذه النكتة تقول انه عندما يسأل عن شيء ما كان يجيب (لما انشوف) برغم عماه ويظهر انه لم ير شيئاً حتى تأليفه هذا الكتاب فاكتشفت ان أمين المكتبة كان معادياً للأدب الحديث، وكان يتمنى لو انني استعير ديوان صفي الدين الحلي، أو الحبوبي لأنه وضع أمامي هذين الكتابين ولكنني تجاهلت وجودهما وأصررت على استعارة كتب الأيام، عند ذاك طلب مني الهوية وقلت له إنني لا أملك هوية فتدخل الصديق غائب طعمة فرمان وقال إنني أكفله، فقال أمين المكتبة ان الكفالة ليست بالكلمات وعليكما ان تدفعا ديناراً، ولكننا استعدنا الدينار سريعاً لأنني لم أنم طوال الليل وأكملت الكتاب، وارتبطت بالقرب من مكتبة المسجد الى أن جاء واستعدت الدينار وحاولت اكتشاف مكتبة أخرى ليس فيها أمين كهذا الرجل الذي كان يكره طه حسين.

-٣-

في تلك المرحلة كنت أنا وصديقي غائب طعمة فرمان نحاول كتابة الشعر، وذات يوم كتب «غائب» قصيدة مكونة من ١٠٠ بيت فحاولت مجاراته ولكنني فشلت وتوقفت عند البيت الثلاثين. والغريب ان (غائب) هجر الشعر وتوجه الى كتابة القصة القصيرة والرواية فيما بعد وعندما اكتشف انني لم أحب أمين مكتبة جامع الخانّي قال لي استعد في يوم الجمعة للذهاب الى سوق السراي وسوق السراي من اهم الاسواق القصيرة والقديمة في بغداد، ويضم عشرات المكتبات التي تبيع الكتب القديمة أو المستعملة أي التي قرئت، وذهبت معه فعلاً في يوم جمعة منذ الصباح الباكر ومعنا بعض النقود فاشترينا بعض كتب جبران خليل جبران، وبعض الروايات المترجمة الى الغربية، ولكن جمال السوق وجمال المكتبات ورائحة الماضي التي تعبق بين جنباته جذبتنا وأغرتنا بالجلوس لأول مرة في أحد مقاهيه، واكتشفنا أن بعض الأدباء العراقيين والصحافيين يجلسون في ذلك النهار، وكان المقهى مشهوراً بتقديم الشاي على الطريقة العراقية. وأذكر أن رجلاً يضع نظارات سوداء نظر الى الكتب التي كانت معنا،

وطلب أن يقلبها وعندما رأى أسماء مؤلفيها هز رأسه بسرور وقال عن نفسه انه صحافي وأديب وكان هذا الشخص هو مشكور الأسدي الذي أصبح من أشد أعدائنا بعد سنوات قليلة لأنه عمل رقيباً على المطبوعات، وكان يمنع كل الكتب الجيدة وخصوصاً المترجمة الى العربية، وقام بتأديبه ذات يوم أحد أصدقائنا وهو الشاعر العراقي الراحل كاظم جواد بعد منعه لإحدى المجلات التي نشرت قصيدة له اذا سكب قدح الشاي الساخن على رأسه الصلع، وهرب.

منذ تلك الزيارة الأولى أصبح سوق السراي منجماً كبيراً لنا نلتقط منه الكتب النادرة التي غذت مخيلتنا ولعبت دوراً في التكوين الثقافي لجيل الأربعينيات والخمسينيات.

والغريب ان الشرطة كانت تغض النظر عن الكثير من الكتب التي كانت تمنع، ولكننا كنا نجدها في مكتبات هذا السوق، فاكتشفنا ان بعض الموظفين في دائرة المبطوعات يسرقون هذه الكتب ويبيعونها لأصحاب هذه المكتبات. وقد وقع حادث طريف آخر ذات يوم، عندما ذهبت مع صديقي الشاعر كاظم جواد الى المكتبة العصرية التي كانت تقع خارج سوق السراي أي في شارع المتنبي، وسألناه عن كتاب «الأم» لمكسيم غوركي وكان صدر في دمشق عن دار اليقظة العربية، فقال لنا إنه يعتقد ان الرقابة ستمنعه، وأعطانا نسخة وقال بإمكانكما ان تقرأا هذه النسخة معاً، لكن صديقي كاظم قال إنه سيأخذ النسخة في اليوم التالي الى الرقيب ليرغبه على الموافقة على تداولها وكانت بغداد تئن تحت الحكم العسكري، وكان الرقيب ضابطاً وعندما ذهبنا اليه في اليوم التالي، قال لنا الجندي المكلف بخدمته انه ذهب الى مكان ما وسيعود بعد قليل وقلنا له إننا اصدقاء الضابط، فقال تفضلا الى أن يأتي فما كان من كاظم الا ان ذهب الى طاولة الضابط فوجد الختم المدونة عليه الموافقة وختم النسخة التي كانت معنا.

عدنا الى المكتبة العصرية وقلنا له ان الرقابة قد وافقت على الكتاب، وكان لديه خمسون نسخة فقط، وها هي الاساعات حتى بيعت النسخ جميعا، وكنا نراقب الأمر عن كثب فبعد قليل رأينا سيارة عسكرية تقف في باب المكتبة وطلبوا من صاحبها ان يذهب معهم فاحتج وأراهم النسخة المختومة ولكنهم لم يقتنعوا بأقواله.

وقد أوقف صاحب المكتبة ثلاثة ايام وأطلق سراحه بأمر من رئيس الوزراء، وأصبحنا أنا وصديقي نخاف من المرور من أمام المكتبة الى ان ضبطونا ذات يوم ونحن نمر من أمامها، وقال لنا انكما شجعان وقد غفرت لكما ما حل بي، ولولا علاقتي برئيس الوزراء لما أطلق سراحي حتى اليوم.

عن مجلة الاقلام ١٩٨٢

حقائق وطرائف عن الاب الكرملي ونسبه

المحقق ومعين المدقق) المحفوظة في دير الآباء الكرمليين ببغداد، والمكتوبة بخطه عام ١٩٠٨ نبذة، جاء فيها: ابوه ميكائيل ماريني واسمه الحقيقي جبرائيل عواد الماروني من بحر صاف في بكفيا من قرى لبنان، وبيت عواد اشهر من ان يذكر، وابدل اسمه جبرائيل بميخائيل لأمور سياسية كانت في ذلك العهد.. فرحل من لبنان مرافقا احد المنتمين الى نابليون بونابرت. وكان قد جاء سورية ثم رحل منها الى الاستانة ومنها الى فارس و العراق، فكان جبرائيل رفيقه وترجمانه، وكان يفهم ١٤ لغة. وفي بغداد عرف مريم مرغريته و (اللؤلؤه) من بيت اوغسطين جبران البغدادي، وامها (مرتا) ابنة رحماني الكلداني البغدادي، فتزوجها فولد له منها خمسة بنين واربع بنات، وبطرس (يقصد الكرملي نفسه) كان الأبن الرابع من ابناء جبرائيل.

وللمزيد من المعلومات عن هذه الاسرة، ولوضع الحقيقة في موضعها، فان نسابة الاسر المسيحية في العراق، الأب نرسيس صانفيان (المتوفى سنة ١٩٥٣)، كتب في الصفحة (٦٢٥) من المجلد الثالث لمجلة لغة العرب، مقالا عن احدى الاسر، قال فيه ان الياس جرجي اقترن في اوائل سنة ١٨٥٩ بكترينه صابات ابنة اوغسطين بن الياس جبران الكلداني، واسم امها مرثا بنت رحماني. واولاده الذين عاشوا هم: مينا ويوسف ونعوم واليزه وجوتيت، وهذه تزوجها يوسف بن ميخائيل بن يوسف ماريني (يعني به شقيق الأب استاس الكرملي)، وهي ابنة خاله. وفي الهامش يستدرك فيقول: لان ميخائيل يوسف ماريني عواد واسمه الحقيقي جبرائيل بن يوسف عواد الماروني وهو من بحر صاف، اتى بغداد قبل منتصف القرن التاسع عشر وكانت مهنته التعاطي بالعاديات (الآثار) وتزوج في العشرين من حزيران سنة ١٨٥٢ بلولو ابنة اوغسطين بن الياس جبران المذكور.

لماذا هذا التأكيد على نسب الأب الكرملي؟

توجد بعض الاشارات الى ان الأب الكرملي من اصول غير عربية، فقد ذكر المرحوم ابراهيم الدروبي في كتابه الفذ عن البغداديين واخبارهم (ص٢٣٤) ان الكرملي من اسرة ايطالية نزحت الى لبنان اوستوطنت هناك مدة طويلة ثم اجرت الى بغداد. ولم تكن رواية الدروبي ضربا من الخيال، فقد عثرنا على شيء من هذا (الأمر الغريب) في رسائل الدكتور نابليون الماريني، شقيق الأب انستاس، الى شقيقه. ففي رسالته المؤرخة في ٢٠ آذار ١٩٠٧، ذكر انه من اصل ايطالي ، بل انه ذكر في رسالته ليوم ٢٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ ان اباه لو قام من القبر واعترف انه من آل عواد فلا يصدقه، بل انه سيقنعه عكس ذلك، ولم يكتف بهذا بل صرح في رسالته ليوم ٢٧ تموز ١٩١٢ ان اخواله يرجعون الى اصل ايطالي وان جده لامه عاش في استانبول ثم رجع الى بغداد.

غير ان ما يضعف هذه الدعوى، ويؤكد عروبة الأب الكرملي، ان ابن عمه المدعو عواد منصور، ذكر في رسالة له للكرملي في ٢٨ كانون الأول ١٩٠٩ ان الدكتور نابليون اكتسب الجنسية الايطالية، واشاع النسب الايطالي ليكون ضمن حماية القنصل الايطالي وليتخلص من الضرائب (ملفات الكرملي المحفوظة في دار المخطوطات ببغداد، الملفان الرقمان ٣٤٧٨٧، ٣٤٦٤١).

ذكر عدد من اصدقاء الأب انستاس الكرملي انهم سمعوا من الأب ان اصله عربي، وكان هؤلاء الاصدقاء من الملازمين للأب الكرملي والعارفين اسراره واحواله، فقد كتب المرحوم مهدي مقلد (المتوفى سنة ١٩٧٩) ان الكرملي ذكر مرات عديدة انه ينتسب الى قبائل المرده العربية الذين يسكنون جبال وانه، وان المرده في الاصل من بني مراد، القبيلة الكبيرة في اليمامة (جريدة الايام البغدادية ١١ تشرين الاول ١٩٦٢)، بينما ذكر المرحوم الدكتور مصطفى جواد ان الكرملي ذكر في احدى رسائله له ان حبه لأهل اليمن يعود الى ان اورمته من تلك الارجاء (الالوسي ص٩). واكد المؤرخ المحقق يعقوب سركيس (المتوفى سنة ١٩٥٩) ان والد الأب انستاس من اسرة آل عواد العربية وليس له اية صلة بايطاليا (الايام ٨ تشرين الأول ١٩٦٢).

وهكذا تبين لنا اصل الأب انستاس الكرملي بجلاء. اما بدء صلة اسرته بالعراق، فقد كان ابوه مترجما عند امير فرنسي من عائلة نابليون بونابرت، ولتبقى ذكرى هذا الامير حية لديه، فقد اطلق اسم نابليون على احد ابنائه، وقد ذهبت هذه العائلة نزحت الى لبنان فرنسا واصبح طبيبا معروفا، كتب العديد من البحوث الطبية، وقد ترجم شقيقه الاب انستاس بعضها الى اللغة العربية، ونشرها في مجلة (المشرق) البيروتية، قبل ان يدب الخلاف بينه وبين صاحبها الأب لويس شيخو اليسوعي. وتوفى الدكتور نابليون الماريني عام ١٩٢٥، تاركا كتابا طريفا عن بغداد، سماه (تنزه العباد في مدينة بغداد)، طبع في بيروت عام ١٨٨٧م.

وقد رافق (جبرائيل عواد) الامير الفرنسي في رحلاته الى مصر ولبنان وسوريا والاناضول وايران.. والعراق. ويبدو ان رحلاته كانت للبحث عن الآثار القديمة ونقلها الى اوروبا، وقد عرف جبرائيل فيما بعد بنشاط اثاري تجاري كما سنرى. وما ان انتهت مهمته مع الامير حتى قرر ان يستقر في العراق، فاقترن عام ١٨٥٩ بكريمة احدى الأسر الكلدانية ببغداد، فرزق منها خمسة ذكور واربع اناث. ومن اولاده بطرس الذي انخرط في السلك الديني واشتهر باسم انستاس ماري الكرملي، وكانت ولادته في اليوم الخامس من آب ١٨٦٦.

ونذكر هنا ان خال الأب انستاس، هو الشماس فرنسيس اوغسطين جبران، المتوفى يوم ٢٨ كانون الاول ١٩٢٤، كانت له بعض المساهمات الفكرية (الكتاب الذهبي ليوبيل مجلة المقتطف ص١٢٩)، وقد اشترك مع وجهاء الكلدان في بغداد واسس (مدرسة الاتفاق الكاثوليكي) عام ١٨٧٨ م في كنيسة الكلدان في مجلة (عقد النصارى). ويذكر المرحوم سامي خوذه (المتوفى سنة ١٩٩٠) انه كان يرتدي ثوبا احمر وعباءة سوداء وذا لحية كثة. وقد خلف ولدا يدعى (نرسي) استخدم في العشرينيات في مديرية البريد والبرق (الايام ١٢ تشرين الاول ١٩٦٢).

اشتغل والد الأب انستاس بتجارة القطع الاثرية وبيعها للسواح الاجانب، وكانت اثارنا يومذاك مشاعة للجميع، لا قانون يحميها ولا وعي يدرك اهميتها التاريخية. وكان الرحالة الاجانب يجوبون ارض العراق بحثا عن الآثار واخبارها. ومن الطريف ان احد هؤلاء الرحالة ترك لنا وصفا لوالد الاب انستاس الكرملي.

كان ابوه مترجما عند امير فرنسي من عائلة نابليون بونابرت، ولتبقى ذكرى هذا الامير حية لديه، فقد اطلق اسم نابليون على احد ابنائه، وقد ذهبت هذه العائلة نزحت الى لبنان فرنسا واصبح طبيبا معروفا، كتب العديد من البحوث الطبية، وقد ترجم شقيقه الاب انستاس بعضها الى اللغة العربية، ونشرها في مجلة (المشرق) البيروتية، قبل ان يدب الخلاف بينه وبين صاحبها الأب لويس شيخو اليسوعي. وتوفى الدكتور نابليون الماريني عام ١٩٢٥، تاركا كتابا طريفا عن بغداد، سماه (تنزه العباد في مدينة بغداد)، طبع في بيروت عام ١٨٨٧م.

وقد رافق (جبرائيل عواد) الامير الفرنسي في رحلاته الى مصر ولبنان وسوريا والاناضول وايران.. والعراق. ويبدو ان رحلاته كانت للبحث عن الآثار القديمة ونقلها الى اوروبا، وقد عرف جبرائيل فيما بعد بنشاط اثاري تجاري كما سنرى. وما ان انتهت مهمته مع الامير حتى قرر ان يستقر في العراق، فاقترن عام ١٨٥٩ بكريمة احدى الأسر الكلدانية ببغداد، فرزق منها خمسة ذكور واربع اناث. ومن اولاده بطرس الذي انخرط في السلك الديني واشتهر باسم انستاس ماري الكرملي، وكانت ولادته في اليوم الخامس من آب ١٨٦٦.

ونذكر هنا ان خال الأب انستاس، هو الشماس فرنسيس اوغسطين جبران، المتوفى يوم ٢٨ كانون الاول ١٩٢٤، كانت له بعض المساهمات الفكرية (الكتاب الذهبي ليوبيل مجلة المقتطف ص١٢٩)، وقد اشترك مع وجهاء الكلدان في بغداد واسس (مدرسة الاتفاق الكاثوليكي) عام ١٨٧٨ م في كنيسة الكلدان في مجلة (عقد النصارى). ويذكر المرحوم سامي خوذه (المتوفى سنة ١٩٩٠) انه كان يرتدي ثوبا احمر وعباءة سوداء وذا لحية كثة. وقد خلف ولدا يدعى (نرسي) استخدم في العشرينيات في مديرية البريد والبرق (الايام ١٢ تشرين الاول ١٩٦٢).

اشتغل والد الأب انستاس بتجارة القطع الاثرية وبيعها للسواح الاجانب، وكانت اثارنا يومذاك مشاعة للجميع، لا قانون يحميها ولا وعي يدرك اهميتها التاريخية. وكان الرحالة الاجانب يجوبون ارض العراق بحثا عن الآثار واخبارها. ومن الطريف ان احد هؤلاء الرحالة ترك لنا وصفا لوالد الاب انستاس الكرملي.

كان بارا بها بر الوالد الصالح بامه و ابيه، عاطفا عليها ايام شدتها وضرائها، حافظا لها ايام كانت هزأة الهازئين وفكاهة الافاكين ان في اثاره وسيرته العلمية ما يجعله خالد الذكر ابد الآبدين ودهر الداهرين.

■ رفعة عبد الرزاق محمد

في حياة الأفذاذ من رجال العلم والأدب، الكثير من الأسرار التي تتصل بسيرتهم، يكتشفها الباحث بين حين وآخر في الزوايا المنسية، وعلى الرغم من الكتابات الكثيرة عن سيرة الأب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ – ١٩٤٧) ، فان جوانبا عديدة لازالت مطوية، يلفها الغموض ويكتنفها النسيان، تحن الى من يزيل عنها الابهام. ولاتتم هذه العملية إلا بالعودة الى الوثائق الشاردة، والروايات المتفرقة في بطون الكتب والدوريات. ومن القضايا التي تستحق التحقيق والبحث، قضية نسب الأب الكرملي واحوال اسرته.

ومع ايماننا الكامل بان الأب انستاس ماري الكرملي، كان من ابرز المنافحين عن حياض لغة الضاد واحد سدنتها، وحبه لها بكل جوارحه، فان قضية نسبه، مازالت تثير الباحث لاستقصائها والولوج الى اسرارها. وازاء الادلة الكثيرة التي تثبت عروبته، فان بعض الاشارات الى غير ذلك، جديرة بالدرس والتحقيق، للوصول الى الحقيقة.

والمعروف ان والد الأب الانستاس، من اسرة لبنانية تدعى (آل عواد)، اسمه جبرائيل يوسف عواد، كانت ولادته عام ١٨٢٣ في حي (بحر صاف) من أحياء (بكفيا) في جبل لبنان.

هذا ما ذكره الاستاذ كوركيس عواد في كتابه الفذ عن الأب الكرملي (ص٧). بينما سماه الاستاذ جورج جبوري (ميخائيل عواد)، وسماه الاستاذ روكس بن زائد العزيزي (ميكائيل الماريني).. ولولاد الأب انستاس ترجمة موجزة في كتاب (تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ اسرها) للشيخ ادمون بليبل المطبوع في لبنان عام ١٩٣٥ (ص ٢٥٦ – ٢٦٠).

وقد ذكر الكرملي في مخطوطته (معين المحقق ومعين المدقق) المحفوظة في دير الآباء الكرمليين ببغداد، والمكتوبة بخطه عام ١٩٠٨ نبذة، جاء فيها: ابوه ميكائيل ماريني واسمه الحقيقي جبرائيل عواد الماروني من بحر صاف في بكفيا من قرى لبنان، وبيت عواد اشهر من ان يذكر، وابدل اسمه جبرائيل بميخائيل لأمور سياسية كانت في ذلك العهد.. فرحل من لبنان مرافقا احد المنتمين الى نابليون بونابرت. وكان قد جاء سورية ثم رحل منها الى الاستانة ومنها الى فارس و العراق، فكان جبرائيل رفيقه وترجمانه، وكان يفهم ١٤ لغة. وفي بغداد عرف مريم مرغريته و (اللؤلؤه) من بيت اوغسطين جبران البغدادي، وامها (مرتا) ابنة رحماني الكلداني البغدادي، فتزوجها فولد له منها خمسة بنين واربع بنات، وبطرس (يقصد الكرملي نفسه) كان الأبن الرابع من ابناء جبرائيل.

وللمزيد من المعلومات عن هذه الاسرة، ولوضع الحقيقة في موضعها، فان نسابة الاسر المسيحية في العراق، الأب نرسيس صانفيان (المتوفى سنة ١٩٥٣)، كتب في الصفحة (٦٢٥) من المجلد الثالث لمجلة لغة العرب، مقالا عن احدى الاسر، قال فيه ان الياس جرجي اقترن في اوائل سنة ١٨٥٩ بكترينه صابات ابنة اوغسطين بن الياس جبران الكلداني، واسم امها مرثا بنت رحماني. واولاده الذين عاشوا هم: مينا ويوسف ونعوم واليزه وجوتيت، وهذه تزوجها يوسف بن ميخائيل بن يوسف ماريني (يعني به شقيق الأب استانس الكرملي)، وهي ابنة خاله. وفي الهامش يستدرك فيقول: لان ميخائيل يوسف ماريني عواد واسمه الحقيقي جبرائيل بن يوسف عواد الماروني وهو من بحر صاف، اتى بغداد قبل منتصف القرن التاسع عشر وكانت مهنته التعاطي بالعاديات (الآثار) وتزوج في العشرين من حزيران سنة ١٨٥٢ بلولو ابنة اوغسطين بن الياس جبران المذكور.

لماذا هذا التأكيد على نسب الأب الكرملي؟

توجد بعض الاشارات الى ان الأب الكرملي من اصول غير عربية، فقد ذكر المرحوم ابراهيم الدروبي في كتابه الفذ عن البغداديين واخبارهم (ص٢٣٤) ان الكرملي من اسرة ايطالية نزحت الى لبنان اوستوطنت هناك مدة طويلة ثم اجرت الى بغداد. ولم تكن رواية الدروبي ضربا من الخيال، فقد عثرنا على شيء من هذا (الأمر الغريب) في رسائل الدكتور نابليون الماريني، شقيق الأب انستاس، الى شقيقه. ففي رسالته المؤرخة في ٢٠ آذار ١٩٠٧، ذكر انه من اصل ايطالي ، بل انه ذكر في رسالته ليوم ٢٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ ان اباه لو قام من القبر واعترف انه من آل عواد فلا يصدقه، بل انه سيقنعه عكس ذلك، ولم يكتف بهذا بل صرح في رسالته ليوم ٢٧ تموز ١٩١٢ ان اخواله يرجعون الى اصل ايطالي وان جده لامه عاش في استانبول ثم رجع الى بغداد.

غير ان ما يضعف هذه الدعوى، ويؤكد عروبة الأب الكرملي، ان ابن عمه المدعو عواد منصور، ذكر في رسالة له للكرملي في ٢٨ كانون الأول ١٩٠٩ ان الدكتور نابليون اكتسب الجنسية الايطالية، واشاع النسب الايطالي ليكون ضمن حماية القنصل الايطالي وليتخلص من الضرائب (ملفات الكرملي المحفوظة في دار المخطوطات ببغداد، الملفان الرقمان ٣٤٧٨٧، ٣٤٦٤١).

ذكر عدد من اصدقاء الأب انستاس الكرملي انهم سمعوا من الأب ان اصله عربي، وكان هؤلاء الاصدقاء من الملازمين للأب الكرملي والعارفين اسراره واحواله، فقد كتب المرحوم مهدي مقلد (المتوفى سنة ١٩٧٩) ان الكرملي ذكر مرات عديدة انه ينتسب الى قبائل المرده العربية الذين يسكنون جبال وانه، وان المرده في الاصل من بني مراد، القبيلة الكبيرة في اليمامة (جريدة الايام البغدادية ١١ تشرين الاول ١٩٦٢)، بينما ذكر المرحوم الدكتور مصطفى جواد ان الكرملي ذكر في احدى رسائله له ان حبه لأهل اليمن يعود الى ان اورمته من تلك الارجاء (الالوسي ص٩). واكد المؤرخ المحقق يعقوب سركيس (المتوفى سنة ١٩٥٩) ان والد الأب انستاس من اسرة آل عواد العربية وليس له اية صلة بايطاليا (الايام ٨ تشرين الأول ١٩٦٢).

وهكذا تبين لنا اصل الأب انستاس الكرملي بجلاء. اما بدء صلة اسرته بالعراق، فقد كان ابوه مترجما عند امير فرنسي من عائلة نابليون بونابرت، ولتبقى ذكرى هذا الامير حية لديه، فقد اطلق اسم نابليون على احد ابنائه، وقد ذهبت هذه العائلة نزحت الى لبنان فرنسا واصبح طبيبا معروفا، كتب العديد من البحوث الطبية، وقد ترجم شقيقه الاب انستاس بعضها الى اللغة العربية، ونشرها في مجلة (المشرق) البيروتية، قبل ان يدب الخلاف بينه وبين صاحبها الأب لويس شيخو اليسوعي. وتوفى الدكتور نابليون الماريني عام ١٩٢٥، تاركا كتابا طريفا عن بغداد، سماه (تنزه العباد في مدينة بغداد)، طبع في بيروت عام ١٨٨٧م.

وقد رافق (جبرائيل عواد) الامير الفرنسي في رحلاته الى مصر ولبنان وسوريا والاناضول وايران.. والعراق. ويبدو ان رحلاته كانت للبحث عن الآثار القديمة ونقلها الى اوروبا، وقد عرف جبرائيل فيما بعد بنشاط اثاري تجاري كما سنرى. وما ان انتهت مهمته مع الامير حتى قرر ان يستقر في العراق، فاقترن عام ١٨٥٩ بكريمة احدى الأسر الكلدانية ببغداد، فرزق منها خمسة ذكور واربع اناث. ومن اولاده بطرس الذي انخرط في السلك الديني واشتهر باسم انستاس ماري الكرملي، وكانت ولادته في اليوم الخامس من آب ١٨٦٦.

ونذكر هنا ان خال الأب انستاس، هو الشماس فرنسيس اوغسطين جبران، المتوفى يوم ٢٨ كانون الاول ١٩٢٤، كانت له بعض المساهمات الفكرية (الكتاب الذهبي ليوبيل مجلة المقتطف ص١٢٩)، وقد اشترك مع وجهاء الكلدان في بغداد واسس (مدرسة الاتفاق الكاثوليكي) عام ١٨٧٨ م في كنيسة الكلدان في مجلة (عقد النصارى). ويذكر المرحوم سامي خوذه (المتوفى سنة ١٩٩٠) انه كان يرتدي ثوبا احمر وعباءة سوداء وذا لحية كثة. وقد خلف ولدا يدعى (نرسي) استخدم في العشرينيات في مديرية البريد والبرق (الايام ١٢ تشرين الاول ١٩٦٢).

اشتغل والد الأب انستاس بتجارة القطع الاثرية وبيعها للسواح الاجانب، وكانت اثارنا يومذاك مشاعة للجميع، لا قانون يحميها ولا وعي يدرك اهميتها التاريخية. وكان الرحالة الاجانب يجوبون ارض العراق بحثا عن الآثار واخبارها. ومن الطريف ان احد هؤلاء الرحالة ترك لنا وصفا لوالد الاب انستاس الكرملي.

كان بارا بها بر الوالد الصالح بامه و ابيه، عاطفا عليها ايام شدتها وضرائها، حافظا لها ايام كانت هزأة الهازئين وفكاهة الافاكين ان في اثاره وسيرته العلمية ما يجعله خالد الذكر ابد الآبدين ودهر الداهرين.

ميخائيل، ويقول: وليس في هذا الاسم اية دلالة دينية، وهو ترجمان الدير، وقد قرن بهذه الوظيفة صفة تاجر عاديات وتحف، مما جعل له صلة بجميع الاوروبيين، ولم يكد يغتبط بالبنية التي خلق عليها او ابتلى بها على الاصح.

تصوروا وجها عريضا وفما ضخما مع عينين صغيرتين وكتفين اختلف فيهما العلو والبروز، كل ذلك قائم على ساقين معاديين للخط المستقيم. وخلاصة القول فيه انه راس (كازيمودو) على جسم (تريولبه) (الاول بطل رواية احدب نوتردام، والثاني مهرج البلاط الفرنسي ايام الملك لويس الثاني عشر).

ومهما يكن من امره، فانه تزوج من فتاة ارمنية جميلة، انجبت له اربعة اولاد، كان يتتبج بتنشئتهم على احسن المبادئ واقومها. وكانت مبادئه في التربية تقوم على الضرب من الصباح الى المساء.. يضاف الى ذلك ان ميخائيل الورع المتدين كان يستند الى آية الكتاب المقدس التي تنص على التأديب، علاقة المحبة الابوية.

كان ميخائيل وكيل الدير الكرملي، يقوم بكل اعماله في الخارج، اما في الداخل فكان يتعهد الكنيسة بالعناية ويخدم في القداس ويقرع النواقيس ويتولى اعمال الترجمة والقيم والمتعهد والشماس.. فكان يبحث عن الاجانب ويتعهد بخدمتهم، كان يشتري لتجارته كل ما يقدم اليه من مواد غريبة كما يعتقد. بيد ان معلوماته الاثارية قاصرة وكثيرا ما كان يقع فريسة الخداع لان ميخائيل تفتن في تقليد العاديات وتزييف الاحجار.

ثم ينقل معرب الرحلة (مير بصري) شيئا عن معاملته في بيع العاديات، حتى يذكر: ان ميخائيل الموما اليه هو والد الأب انستاس الكرملي على ما حققه المحقق يعقوب سركيس، وهو اكثر الناس صلة بالكرملي (جريدة الايام ٨ تشرين الأول ١٩٦٢).

واخيرا، فان كلمة الدكتور مصطفى جواد على قبر الكرملي ، تغني عن كل قول، قال: الأب انستاس رجل وهب نفسه للغة العربية، فكان باراً بها بر الوالد الصالح بامه و ابيه، عاطفا عليها ايام شدتها وضرائها، حافظا لها ايام كانت هزأة الهازئين وفكاهة الافاكين ان في اثاره وسيرته العلمية ما يجعله خالد الذكر ابد الآبدين ودهر الداهرين.

اول وزيرة في تاريخ العراق الحديث

موقفها من ثورة تموز ١٩٥٨ ؟ وكيف تولت منصبا وزاريا ؟

صفحات مطوية من حياة الدكتورة نزيهة الدليمي

■موفق خلف العلياوي

في ساعات الفجر الأولى ليوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، أذيع بيان الثورة الأول من إذاعة بغداد، وعلى أثر سماعه، نزلت الدكتورة نزيهة الدليمي من بيتهم الكائن في الأعظمية، متوجهة إلى الشارع العام هدفها تنفيذ تعليمات الحزب الذي تضمنها التوجيه الداخلي الصادر يوم الثاني عشر من تموز، إذ تقول عن ذلك: "خرجت أنا من بيتنا في شارع المغرب وتوجهت إلى الشارع العام، وبعد عدة خطوات كنت وسط المظاهرات القادمة من الأعظمية، ومن الكاظمية عبر الأعظمية، وقبل إن نصل إلى البلاط، شاهدت سلام عادل وهو يرتدي سترة وبنطلونا، وبالنسبة لي رأيته أول مرة بتلك الهيئة وليس بالملابس العربية التي كان يتنكر بها، وأقترب مني قائلاً : أنني الآن قادم من البريد حيث أرسلت برقية بإسم اللجنة المركزية تهنئة بانتصار الثورة... وكان هذا، بعد العمل السري الطويل شيئا هزنا تماما.. وبعد ذلك قال عليكم أن تنشطوا من أجل نشر شعارات الحزب في هذه المظاهرة وأن لا تكونوا سلبيين.. لان مختلف القوى السياسية في الشارع، وأشار إلى مجموعة قليلة من المتظاهرين تحمل صور عبد الناصر، فأكد ما جاء في التوجيهات الحزبية (ضرورة تجنب إبراز شعارات مبهمة أو متطرفة أو تلك التي تمجد هذا الزعيم أو ذاك من قادة الحركة الوطنية أو العربية على حساب طمس شعاراتنا الأساسية). وبعد هذا الكلام وبعد أن سار إلى جواري عدة مئات من الخطوات أندمج مع خضم المتظاهرين وتواري عن نظري. وسُرتُ في المظاهرات حتى عبرت معها إلى جانب الكرخ عبر جسر الشهداء، وكان الناس يعبرون عن فرحتهم بتقديم اللبن البارد أو الشربت البارد، وبالهلاهل من قبل النساء. وكانت شعارات الحزب الشيوعي تصل إلى الناس بالهتافات والهوسات المنطلقة من الحناجر في جو من الحماس والفرح الغامر. وظلت الشوارع الرئيسة في بغداد بجانبي الرصافة والكرخ تعج بمئات الألوف من الناس حتى ساعة بدء منع التجول مساءً ".

كان الحزب قد اصدر في اللحظات الأولى للثورة تعليمات إلى أعضائه، تضمنت تشكيل لجان شعبية للدفاع عنها، وفي اليوم التالي، أي الخامس عشر من تموز بعثت اللجنة المركزية للحزب، برقية إلى رئيس الحكومة عبد الكريم قاسم أكد فيها على ضرورة تشكيل مثل تلك اللجان، وفي يوم التاسع عشر منه أصدرت الحكومة قانوناً يقضي بتشكيل لجان للمقاومة الشعبية.

نشطت الدكتورة نزيهة الدليمي بالدعوة إلى الانخراط في لجان المقاومة الشعبية، وطالبت بإشراك المرأة فيها، وذلك من خلال زيارة وفد رابطة الدفاع عن حقوق المرأة برئاستها إلى الزعيم الركن عبد الكريم قاسم في الثاني عشر من تشرين الأول عام ١٩٥٨، إذ طالبن من الأخير ضرورة إشراكهن جدياً في فصائل المقاومة الشعبية بالتدريب الفعلي والعملي الواسع النطاق، كما يظهر توجه الدكتورة نزيهة الدليمي في هذا الاتجاه من خلال دعوتها النساء إلى الانضمام للجان المقاومة الشعبية، وذلك في مقابلة صحفية أجرتها معها جريدة الزمان البغدادية، إذ دعت فيها النساء إلى التسجيل والانتماء إلى تلك اللجان، كما أنها شاركت بوفد ضم عدد من الشخصيات الشعبية والحزبية التقى الزعيم عبد الكريم قاسم في الرابع من كانون الأول عام ١٩٥٨، وطالبت من خلاله الحكومة بإطلاق حرية الرأي والتعبير، عن طريق إجازة الصحف التي يمكن إن تُسهم في تنوير الجماهير، وتعبئتها فكرياً ضد أعداء الثورة.

عليه يمكن القول أن الدكتورة نزيهة الدليمي كانت قد كثفت من نشاطها وبفعالية كبيرة في أحداث ثورة تموز عام ١٩٥٨، ويظهر ذلك من خلال دعمها لميثاق جبهة الاتحاد الوطني والتوقيع عليه، كما إن نشاطها في صفوف الحزب الشيوعي العراقي تنظيمياً، وميدانياً، كان واضحٌ من خلال الأحداث، فضلاً عن نشاطها في صفوف الحركة النسوية، كل ذلك أدى إلى أن تضع حكومة الثورة ثقتها فيها بمنحها حقيبة وزارة البلديات.

توليها وزارة البلديات :

كان الحزب الشيوعي العراقي قد وقف إلى جانب ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، منذ أول لحظة انطلاقها، وأعلن عن مساندته للثورة وصيانة الجمهورية الوليدة، فبادر إلى تشكيل فصائل المقاومة الشعبية التي هيمن على تشكيلاتها، فضلاً عن هيمنته الواضحة على المنظمات الشعبية الأخرى كاتحاد الشبيبة، واتحاد الطلبة العام، وحركة أنصار السلام، ورابطة المرأة العراقية، واتحاد نقابات العمال، واتحاد الجمعيات الفلاحية، ونقابات المعلمين، والمهندسين، والأطباء، و جمعيات الصداقة المختلفة.

كان لتلك التشكيلات دورٌ بارزٌ في مساندة الثورة، والوقوف إلى جانب عبد الكريم قاسم، والتصدي لكل المحاولات التي حدثت للإطاحة به، ومن أخطرها الحركة التي قادها العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل في السابع من آذار عام

تزامنت تلك الأحداث مع قرب الاحتفال بالذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من تموز، وحدوث تقارب كبير بين عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعي، مما زاد في قناعات الأخير بحقهم في الاشتراك بالسلطة، لاسيما أنهم استبعدوا منها في التشكيلة الحكومية الأولى التي أعلنت بعد الثورة، وفي الثالث من أيار عام ١٩٥٩، أصدرت حكومة الثورة قانون السلطة التنفيذية الذي أستحدث عدداً من الوزارات منها التخطيط والصناعة والنفط والإصلاح الزراعي، فضلاً عن وزارة البلديات، الأمر الذي عزز من مطالب الحزب الشيوعي للاشتراك في السلطة .

أثارت تلك المطالب اهتمام السفارة البريطانية في بغداد، وبالذات بعد إن انتشرت أخبار عن قرب أجراء تعديل وزاري لمناسبة الذكرى الأولى لثورة تموز، ففي السابع والعشرين من نيسان ١٩٥٩، كتب همفري تريفليان Humphrey Trevelyan ، السفير البريطاني في بغداد إلى حكومته قائلا : "تأجلت عملية إعادة تنظيم الحكومة، وحتى الآن لم يوافق قاسم على التعيين المقترح لأثنين من الشيوعيين في الوزارة، ذلك المقترح الذي دافعت عنه وأيدته الصحف ذات الاتجاه القريب من الخط الشيوعي".

في الرابع من أيار ١٩٥٩، كتب همفري تريفليان برقية إلى حكومته ذكر فيها ما نقله له ديزو اريفيك السفير اليوغسلافي في بغداد، من نية عبد الكريم قاسم في إشراك الشيوعيين بالوزارة الجديدة، ومما جاء في تلك البرقية: "إن قاسما وافق على اشتراك وزيرين من الحزب الشيوعي في الحكم... أن بعض قادة الحزب الوطني الديمقراطي يفضلون مشاركة الحزب الشيوعي في الحكم ويعتقدون أن تلك المشاركة ستجعل السيطرة على الحزب الشيوعي أسهل مما لو ترك خارج الحكم".

في الرابع عشر من أيار ١٩٥٩، ألقى الزعيم عبد الكريم قاسم خطاباً بمناسبة عقد مؤتمر اتحاد الصناعات في الجمهورية العراقية، لمح فيه بشكل غير مباشر إلى الشيوعيين بأنه يعمل على إشراكهم في الحكم، إذ قال : " أنني نصير الفقراء ونصير العامل ونصير الفلاح ونصيركم، وأنني نصير المرأة وأنتصر إليها فأن المرأة أيها السادة لأول مرة في تاريخ المشرق العربي سوف تشاركنا في الحكم، أيها الأخوات أيها السادة أن المرأة قريباً سوف تشاركنا في الحكم وسوف تكون عضواً في الوزارة القادمة".

كان ذلك الخطاب إشارة واضحة إلى الدكتورة نزيهة الدليمي، المقربة من عبد الكريم قاسم، الذي عدها شيوعية لكنها غير مرتبطة بالتزامات تجاه الحزب الشيوعي في ذلك الوقت، حسب ما أكدته البرقية التي بعث بها همفري ترفليان إلى حكومته في التاسع عشر من تموز ١٩٥٩اذ يقول : " أطلعت على تقارير سرية تشير إلى أنه في أيار من هذه السنة، عدها قاسم (ويقصد نزيهة الدليمي). شيوعية ولكنها غير مرتبطة بالتزامات تجاه الحزب الشيوعي في الوقت الحاضر. ولذلك فقد يكون صحيحا أيضاً أنها أبعدت نفسها عن الحزب بشكل وقتي أو دائمي. وأنني أنقل أليكم هذه المعلومات لأنني أعتقد بأنها صحيحة على الأكثر. وقد تكون هذه المعلومات متطابقة مع خطة قاسم الواضحة بأن يضع في حكومته عدة أشخاص من ذوي الميول الشيوعية، ولكنه في الوقت نفسه لا يدع مجالاً للحزب الشيوعي أن يكون ممثلاً في الحكومة بصفته حزبا "

في الخامس من تموز عام ١٩٥٩، عقد الزعيم عبد الكريم قاسم مؤتمراً صحفياً قال فيه : " أن التعديل الوزاري قريب جداً وقاب قوسين أو أدنى وان المرأة عندما تشترك في الوزارة فهي تمثل المرأة مهما كان عددها، ليست القضية قضية العدد وإنما الأصل هو المبدأ.... أن المرأة ستشترك في الوزارة قبل ذكرى ثورة ١٤ تموز".

ساهمت تلك الخطابات في طمأنة الحزب الشيوعي الذي سارع إلى إيقاف حملته التثقيفية للمطالبة بالاشتراك في الحكم، وهذا ما يظهر في تقرير اللجنة المركزية الصادر عن اجتماعها المنعقد في الخامس عشر من تموز عام ١٩٥٩، الذي أشار إلى أن طرح شعار المشاركة في الحكم بمعزل عن قيادة الحكم، هو عمل انعزالي خاطئ، وان مبادرة الحزب في طرح الشعار مبني في اعتباره على التعديل الوزاري المنوي أجراءه آنذاك.وبصدور ذلك المرسوم، شغلت الدكتورة نزيهة الدليمي منصب وزيرة البلديات، لتكون أول امرأة في تاريخ العراق والمشرق العربي الحديث تصل إلى منصب وزاري، وذلك بعد أن أصبح المرسوم الجمهوري سابق الذكر نافذاً من خلال نشره في جريدة الوقائع العراقية.

تعددت الآراء في موضوع تعيين الدكتورة نزيهة الدليمي في منصب وزاري، فمنهم من يعتقد بان عبد الكريم قاسم أراد أن يعد ذلك مظهراً من مظاهر تقدمية نظامه، و أن يثبت للعالم الخارجي أن العراق أول دولة عربية تقدم على مثل هذه الخطوة، في حين عده آخرون حلاً وسطاً أكد استقلالية عبد الكريم قاسم من جهة، وهدأ الشيوعيين من جهة أخرى، مقابل التراجعات التي قدموها بإيقاف حملتهم التثقيفية للاشتراك في السلطة، و أن ذلك تم بالاتفاق بينها وبين عبد الكريم قاسم لسد النافذة التي فتحها الحزب الشيوعي، بمطالبته بالاشتراك بالوزارة، و أن اختيارها كوزيرة لم يكن له تأثير في سياسته.

الراجح في أمر تعيين الدكتورة نزيهة الدليمي في الوزارة هو محاولة عبد الكريم قاسم كسب ود الشيوعيين، وإقناعهم بأنهم اشتركوا في الوزارة عن طريق حصول نزيهة الدليمي على وزارة البلديات، كما انه لم يكن يعدها شيوعية فاعلة ومؤثرة، وبالتالي فهي لا تؤثر في سياسته، وهذا ما أكده تقرير السفارة الأمريكية في بغداد إلى خارجيتها الذي نص على : " أن هذه التعيينات جاءت حلاً وسطا بين عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعي العراقي، إذ ليس فيهم من هو شيوعي معروف "، وكان تعليق السفارة البريطانية في بغداد حول ذلك التقرير قول سفيرها : " أنني أؤيد هذا التقويم وأعتقد انه ينبغي أن ينظر إلى هذه التعيينات كأقل ما يعتقد قاسم انه ملزم بتلبيته من مطالب الحزب الشيوعي للمشاركة في الحكومة التي لا تكون مجازفة تثير ردة فعل عنيفة من الشيوعيين وفيما لو كان هذا صحيحاً فأن هذه التعيينات لا تطابق سياسة قاسم الأكثر شدة تجاه الشيوعيين مؤخراً ". وأكد ذلك وزير الخارجية العراقي هاشم جواد عن لقائه بالسفير البريطاني في بغداد، إذ قال له : " لا يوجد أي وزير في الحكومة منتم للحزب الشيوعي، وحتى نزيهة الدليمي فما هي إلا ذيليه لهم، مثلما كان عوني يوسف ذيليا للملا مصطفى البرزاني"، أما عن مدى معرفة نزيهة الدليمي بأمر تعيينها كوزيرة، وهل كان بالاتفاق مع عبد الكريم قاسم، فالراجح انه لم يكن صحيحا، إذ أنها تذكر في لقاء معها نشرته جريدة الشرق الأوسط في السادس والعشرين من تشرين الأول عام ٢٠٠٧ " اتصل بي مرافق الزعيم في ذلك الصيف القائظ من عام ١٩٥٩ طالبا مني الحضور إلى وزارة الدفاع، لم أكن أملك ثمن التاكسي، لذلك ركبت الباص رقم (٤) الذاهب إلى الباب المعظم، حيث تقع وزارة الدفاع، ثم نزلت وسرت مسافة طويلة تحت الشمس الحارقة، من البوابة الخارجية حتى بلغت مكتب قاسم، وأنا أتساءل عن سبب استدعائي. وبعد لقائي به قال انه بصدد استحداث وزارة جديدة للبلديات وطلب مني اقتراح هيكل لها وان أكون وزيرتها، نظرت له بدهشة وقلت أنا مواطنة بسيطة وطبيبة لا تفهم شيئاً بالوزارات، لكنه ضحك وشجعني قائلاً انه يثق بي وبقدرات النساء على المشاركة في بناء البلد".

قدمت نزيهة الدليمي خدمات كثيرة إثناء مدة تسلمها لوزارة البلديات على الرغم من قصر تلك المدة، إذ أنها لم تدم سوى عشرة أشهر، حاولت خلالها تقديم الخدمات البلدية إلى كافة المناطق، من خلال النزول إلى ميادين العمل والإشراف المباشر على تنفيذ المشاريع، ويذكر المحامي طارق حرب إنها في أب من عام ١٩٥٩ زارت منطقة الزعفرانية التي كان والده مختارا لها ويقول : "دهشنا واستغربنا، إذ هل سيتولى وزير زيارة هذه المنطقة الشعبية وهذا الوزير امرأة... شاهدناها وكانت ترتدي النظارات بسبب الغبار الذي يسببه الشارع العام في المنطقة. تفقدت المنطقة وسألت الكبير والصغير والرجل والمرأة عن حاجة المنطقة ووعدتنا خيرا في تنفيذ مطالبنا. وبعد أيام شاهدنا المكائن التي ابتدأت بتبليط الشارع العام للمنطقة".

كانت نزيهة الدليمي تجوب كافة مناطق العراق، وتعقد الاجتماعات مع كل رؤساء البلديات، ففي العشرين من آب عام ١٩٥٩، عقد مؤتمر مهندسي مشاريع الماء والكهرباء في الجمهورية العراقية، وكان الهدف منه وضع دراسة فنية لمشاريع الماء والكهرباء في كل لواء وقضاء وناحية، سواء من ناحية تأسيس مشاريع جديدة أو من ناحية توسيع المشاريع التي كانت قائمة، إذ أن تلك المشاريع كانت تنفذ بشكل ارتجالي وعلى أساس تقدير غير دقيق، وتنفذ بكثير من التبذير، وفي تصريح لها لجريدة اتحاد الشعب، أعلنت فيه بأنه تم تكليف المهندسين لإجراء مسح دراسي شامل لمشاريع الماء في العراق، وتوقعت أن يستغرق ذلك شهرين، وأخر لمشاريع الكهرباء يستغرق ستة أشهر، الغرض من ذلك هو معرفة الوزارة كل شيء عن حاجات البلديات في هذه الناحية ووضع خطط مستقبلية على ضوئها.

كان هم الدكتورة نزيهة الدليمي ينصب نحو تحقيق مشروع آخر ومهم هو أن يكون رؤساء البلديات وأعضاء هيئاتها منتخبين من قبل الشعب، وليس معينون من قبل الحكومة، وسعت إلى تحقيق ذلك من خلال دعوتها لعقد مؤتمر في الخامس من أيلول عام ١٩٥٩، لرؤساء ومهندسي البلديات، لدراسة ميزانيتها وإدارتها ومشاريعها، كما جاءت بهيئة قانونية من أجل وضع قانون ينظم عملية انتخاب أعضاء المجالس البلدية باعتبارها مستقلة عن الحكومة، وقدمت ذلك القانون إلى الزعيم عبد الكريم قاسم ولكن الأخير رفضه ولم يسمح به ، دون ذكر أسباب رفضه، أما فيما يتعلق بتوجهها لترسيخ أسس الديمقراطية في الجمهورية العراقية هو إصدارها لقرار عدم على كافة المديريات التابعة للوزارة، وعلى رؤساء البلديات، منعت بموجبه منعا باتا فصل عمال البلديات لمجرد أنهم أعضاء في النقابات الخاصة بهم، كما نص القرار على إعادة جميع العمال الذين فصلوا قبل ذلك للأسباب آنفة الذكر.

سعت الوزيرة الدكتورة نزيهة الدليمي إلى تطوير خدمات البُنى التحتية، لاسيما ما يتعلق منها بصحة الناس، إذ أنها قدمت طلباً إلى مجلس الوزراء في الخامس من آب ١٩٥٩، اقترحت فيه تعيين الدكتور محمد الجلبي، رئيس الصحة القائم بأعمال مدير الصحة العام عضواً في هيئة إدارة مصلحة ماء بغداد، ووافق المجلس على ذلك الطلب، كما تم تعيين عبد المهدي القيم مديراً عاماً لمصلحة المجاري في العاصمة بغداد، كونه من المهندسين الأكفاء، ويحمل شهادة الماجستير في الهندسة الصحية وهندسة الإنشاءات من جامعة مشيكان الأمريكية.

واصل عبد الكريم قاسم تحجيم دور الحزب الشيوعي، فاصدر في السادس عشر من شباط ١٩٦٠ مرسوماً جمهورياً بالرقم ١١٦، والقاضي بإعفاء الدكتور إبراهيم كبه من منصبه كوزير للإصلاح الزراعي، وكان الأخير قد شغل حقيبة وزارة الاقتصاد بعد قيام الثورة ثم وزارة الإصلاح الزراعي في الثالث عشر من تموز ١٩٥٩، وهو ماركسي الفكر، كان حازماً وله صوت مسموع في مجلس الوزراء، وقد عده الشيوعيون ممثلاً لهم في الوزارة، كما كان له دور فاعل في معظم الاتفاقيات الاقتصادية التي عقدت مع الدول الاشتراكية، فضلاً عن دعمه للشيوعيين في مطالبهم للاشتراك في السلطة. وفي الثالث عشر من أيار ١٩٦٠، صدر المرسوم الجمهوري ذي الرقم ٢٦٣ ونص على تعيين الدكتورة نزيهة الدليمي بمنصب وزيرة دولة بدلاً من وزيرة البلديات، وتعيين السيد عباس البلداوي بدلاً عنها.

نتيجة لتلك الممارسات وشعوراً من قيادة الحزب الشيوعي العراقي بالخطر على حياة الدكتورة نزيهة الدليمي، صدر أمراً من قيادته في أب عام ١٩٦١، بإرسال وفد من كوادر الحزب للدراسة في المدرسة الحزبية في الإتحاد السوفيتي، وكانت هي من ضمن أعضاء الوفد، وبقيت هناك حتى قيام انقلاب الثامن من شباط ١٩٦٣.

صورة نادرة للزعيم قاسم مع الدكتورة الدليمي

القاعة الرئيسية في قصر الزهور

قصر الزهور

البلاط الملكي في عهد الملك غازي

كيف اختير احد الموظفين الشباب رئيسا للتشريفات الملكية ؟

■شريف خشن الشويلي

شكل جميل المدفعي وزارته الثانية (٢١ شباط ١٩٣٤) ، وعين جلال بابان ، وزيراً للمعارف، وقد عمل على نهج السياسة التعليمة على وفق البرنامج الحكومي السابق، وكان إجراءها الأول نقل عبد الكريم الأزري من سكرتارية وزارة المعارف إلى وظيفة معاون رئيس البلاط الملكي، أن المكانة المرموقة التي يمثلها البلاط الملكي، تأتي من كونه يمثل الواجهة الرسمية للدولة العراقية، والمقر الرسمي للملك، ويؤمه كبار موظفين الدولة مدنيين وعسكريين وموظفو السلك الدبلوماسي، فضلاً عن الزوار والضيوف من مختلف أنحاء العالم، وقد حتم ذلك وضع شروط دقيقة عند تعيين العاملين في البلاط الملكي من رئيسه حتى أصغر الموظفين حيث كان اختيار الموظفين يتم على وفق اختبارات عديدة، فأما أن تزكيه بعض الشخصيات المعروفة لدى البلاط أو أن يكون حاصلاً على شهادة علمية تؤهله لشغل الوظيفة، أو بسبب تراكم خبراته الوظيفية، ويشترط للمتقدم بالتعيين أن يكون من ذوي الأخلاق الجيدة وغير محكوم عليه بجنحه سياسيه، ويفضل عند التعين من يجيد أكثر من لغة،على أن يوضع الموظف المعين تحت التجربة لمدة سنة واحدة.

بعد التشاور مع علي جودة الأيوبي ، صدرت الارادة الملكية بتاريخ السابع من أيار عام ١٩٣٤ وتحمل توقيع الملك غازي ، بنقل عبد الكريم الأزري من منصبه وتعيينه معاونا لرئيس الديوان الملكي في السابع من أيار من العام المذكور ،على الرغم من كونه في بدء حياته الوظيفية ، وعمره لم يتجاوز الخمس و العشرين سنة .

تتمثل مهمة الأزري بمساعدة رئيسه في الاعمال والواجبات التي يتطلب القيام بها ، كما أنه حل محل رئيس الديوان وكالة عند غيابه مرات عديدة، فضلاً عن أن الأزري كان يقرأ التقرير الأسبوعي السري الذي تصدره شعبة التحقيقات الجنائية التابعة إلى مديرية الشرطة التي كانت ترسل نسخة منه إلى رئاسة الديوان الملكي لاطلاع الملك عليها، ويوضح التقرير وضع البلاد خلال الأسبوع الماضي من تاريخ إصدارها، فيتناول نشاط التيارات السياسية وأهم الحوادث التي تشهدها البلاد، وعلى معاون رئيس البلاط أن يلفت النظر إلى المسائل المهمة الواردة في التقرير عند عرضها على الملك.

انصرف لأداء الأعمال الروتينية التي يتطلبها منصبه الوظيفي، وقد هيأ له ذلك وقت فراغ كبير أنكب فيه على قراءة الأوراق الخاصة بالملك فيصل التي احتوت على مذكرات ورسائل متبادلة بين الأمير فيصل قبل تتويجه ملكاً على العراق وضباط وقادة الثورة العربية الكبرى، أو تلك التي تبادلها الملك مع المندوبين السامين منذ العام ١٩٢١ وحتى دخول العراق في عصبة الأمم عام ١٩٣٢، وغيرها من الأوراق الأخرى التي تخص تاريخ العراق خلال تلك الحقبة. لم يترك شاردة ولا واردة في أوراق البلاط الملكي إلا وقرأها، واتضح له الدور الريادي والجهود الجبارة التي بذلها الملك فيصل، والصعوبات والمشكلات التي واجهها وتغلب عليها في تكوين العراق وتحقيق استقلاله النسبي، وقد مارس الأزري عمله بكل كفاءة، الامر الذي أستوجب منحه وسام الرافدين من الدرجة الخامسة ومن النوع المدني في العاشر من تشرين الأول عام ١٩٣٤.

عدّ الأزري شاهد عيان على ما يجري داخل أروقة البلاط الملكي ، ثم أنه قد اطلع على خفايا الأمور التي كانت تدار خلف الكواليس السياسية، وتمت له معرفة مجريات الأمور السياسية والاقتصادية، كما انكشفت له وبشكل لا يقبل الشك أسرار أواصر الصداقة المبنية على مصالح شخصية مع الملك غازي ويعتقد الأزري أن الصداقة الوثيقة بين رئيس الديوان الملكي علي جودة الأيوبي ورئيس الوزراء جميل المدفعي قد شكلا جبهة حازت ثقة الملك على حساب جبهة المعارضة والتي تتألف من ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني .

من ذلك يتضح بأن الأيوبي له تأثير كبير في الملك غازي مستغلاً قلة دراية وخبرة الملك بأمور الدولة، وجهله بشؤونها فشكل تحالفاً مع السيد كورنوليس، لتأليف الوزارة، فكان له ما أراد، وفي هذا الصدد يذكر الحصري قائلاً: " استحق عن جدارة لقب المستشار البلاطي الأول".

ومن نتائج تحالفاته المتكررة مع العديد من الساسة البريطانيين والعراقيين استطاع تشكيل الوزارة في (٢٧ آب ١٩٣٤-٢٣ شباط ١٩٣٥) ، وعلى أثرها أصبح الأزري رئيساً للديوان الملكي بالوكالة في السابع و العشرين من اب عام ١٩٣٤ ، كما أكدته وثيقة عراقية صادرة من الديوان الملكي وموجهه إلى سكرتارية مجلس الوزراء في ٣٠ اب ١٩٣٤ ضم محتواها أمر الملك غازي بإسناد وكالة الديوان الملكي والسكرتير الخاص إلى عبد الكريم الأزري بدءاً من تاريخ إسناد منصب رئاسة الوزراء إلى الأيوبي، كما طلب من الخزينة المركزية اعتماد توقيع الأزري على الأمور المالية المتعلقة بالبلاط الملكي.

شغل الأزري منصب رئيس الديوان الملكي وكالة، وبذلك عدّ من كبار موظفي الدولة وهو المسؤول عن إدارة شؤون البلاط بوجه عام والديوان بوجه خاص، حيث أخذ على عاتقه عرض القضايا والمخاطبات الرسمية وكل ما يتعلق بأمر الدولة على الملك، وأصبح سكرتير الملك الخاص كما أنه الواسطة الأولى لتبليغ الإرادات الملكية. امتاز عبد الكريم الأزري بجملة من المؤهلات كان لا بد من توفرها برئيس الديوان هي: الحياد التام وعدم الانحياز لأية جهة كانت، والإخلاص للعرش كونه فوق كل الاعتبارات السياسية، ويجب أن ينظر اليه بوصفه رأس لقمة الهرم السياسي، و أن يوجهه نحو الصالح العام، لا أن يتخذ منه وسيلة للكسب المعنوي والمادي، ومن واجباته أن يكتب الخطابات التي يلقيها الملك في المناسبات، ويرد على مكاتباته الخاصة، كما يستمتع الأخير بنفوذ كبير وسلطة توازي سلطة رئيس الوزراء أو وزير الداخلية وله الحق للبت في القضايا المهمة كطلبات التعيين وفك الاختناقات المالية الموجودة داخل الخزينة المركزية والنزاع حول الأراضي.

يبدو أن أحد هذه الشروط لم يكن الأزري ملتزماً بها لأوهيه، اغتنامه فرصة إجراء انتخابات جديدة، وبحكم عمله رئيساً للديوان الملكي، فذكر الأيوبي بتقصير الوزارات السابقة بحق والده عبد الحسين الأزري، فساعدت تلك الوزارة على انتخابه نائبا عن لواء الديوانية .

وإسؤال الذي يطرح نفسه هل عبد الحسين الأزري لا يستحق أن يرشح في المجلس النيابي؟ وهو صاحب سجل وطني زاخر بالتحديات ضد الاحتلاليين العثماني والبريطاني إذ كان صحفياً من الطراز الأول وكاتباً وشاعراً وسياسياً ووطنياً ، وهناك من يعمل داخل أروقة البرلمان وهو لا يمت للوطنية بشيء. إلا لكونه من كبار رؤساء العشائر أو الإقطاعيين، ويجهل أموراً كثيرة أبسطها التكلم باللغة العربية الفصحى.

اتخذ عبد الكريم الأزري سلسلة من الإجراءات خلال ترأسه لديوان الملكي واتصفت أعماله بالمطالبة المشروعة، وكان في مقدمتها ترفيع الموظفين ذوي الاستحقاق والذين لم يتلهم الترفيع منذ مدة طويلة وكان في مقدمتهم تحسين قدري، رئيس التشريفات الملكية، معلاً ذلك أن ما يتطلبه هذا المنصب من مؤهلات خاصة على جانب من الدقة و لاسيما بعد إلغاء منصب كبير الأمناء الذي كان يشغله عبد الله الدملوجي، مما جعل رئيس التشريفات ينفرد في مسؤولية اشغال المنصبين كاملة، وأضاف الأزري أن هذا المنصب له أهمية ومركز كبيرين في البلاط الملكي و لاسيما فيما يبذله اتجاه الهيئات الدبلوماسية، ونظرا للمشاكل التي كانت تعاني منها الخزينة لم يؤخذ باقتراح الأزري.

لم يشهد ملاك موظفي البلاط الملكي وعماله أية تغيرات تذكر عند تولي الملك غازي العرش، لأن الميزانية العامة للسنة المالية ١٩٣٣ كانت قد أقرت في نيسان من العام المذكور، فطلب رئيس الديوان الملكي، وضمن الاستعدادات الجديدة للسنة المالية ١٩٣٤ من وزارة المالية استحداث وظائف جديدة، مثل وظيفة مدير إدارة البلاط، ومساعد ثاني لرئيس التشريفات الملكية، وملاحظ وكاتب، وأوضح أن السبب يعود إلى تضاعف أعمال البلاط الملكي عما كان عليه في السنوات السابقة، نتيجة كثرة المسؤوليات المناطة به تجاه الملك، مما أنعكس سلباً في العمل الإداري للبلاط الملكي، غير أن وزارة المالية لم تلب طلب الصدى الحسن لدى السفارة البريطانية.

فصدرت الإرادة الملكية في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٤ بتعيين رستم حيدر رئيساً للديوان الملكي وسكرتيراً خاصاً للملك ،على الرغم من محاولات الأيوبي التي كانت تصب في اتجاه معاكس، حيث حاول إسناد منصب سياسي مهم له خارج العراق، حال من دون رفض رستم حيدر هذا الإسناد.

ويرى عبد الكريم الأزري أن تعيين رستم حيدر رئيساً للديوان الملكي يعد من محاسن وزارة علي جودة الأيوبي، وأنه اختيار موفق لما تمتع به رستم حيدر من مزايا وخبرات متراكمة تجمعت لديه من خلال المدة الطويلة التي شغلها في هذا المنصب سابقا، مضيفاً أن الأيوبي رضخ لصدور الإرادة الملكية وقبلها على مضض وكان مجبراً على تنفيذها .

كما اعتقد الأزري أن تعيين رستم حيدر سوف يغلق الأبواب بوجه خصومه السياسيين من الاستيلاء على هذا المنصب المهم والذي بواسطته يمكن التأثير في الملك، تسلم الأزري مهام عمله معاوناً لرئيس الديوان الملكي على أثر تعيين رستم حيدر رئيساً للديوان الملكي.

شعر الأزري منذ بداية تعينه بأن الملك غازي شخص قليل الخبرة لم تصقله أو تعده التجارب للاضطلاع بمسؤولية الحكم، وكان بعيداً عن شؤون الدولة ومنصرف إلى حياته الخاصة، ومتمسك برأيه فكانت تلك الأمور كما اعتقد الأزري سبباً في عدم التأثير في الملك من الشخصيات الإصلاحية، ولاسيما عدم تأثير رستم حيدر عليه بشكل فعال ومؤثر كما كان عليه في عهد أبيه الملك فيصل.

زاول الأزري أعماله الروتينية بكونه معاوناً لرئيس الديوان الملكي منذ تاريخ الخامس و العشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٤، وأضيفت إليه مهمة الإشراف على أموال السلف الخاصة بالموظفين وإيداعها مرة ثانية إلى الخزينة المركزية ، خلال مدة عمله في وظيفته حصل الأزري على إجازة أمدها شهرين، سافر إلى لبنان فلسطين.

وأخذ الملك غازي يفكر بأنه من الضروري تأليف وزارة قوية تحضى بثقته من جهة، وثقة رجال العشائر من جهة ثانية، ونتيجة لذلك ألف ياسين الهاشمي وزارته الثانية (١٧ آذار ١٩٣٥ – ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦).

أراد ياسين الهاشمي كسب ود شيوخ العشائر عموماً، كما أراد الحصول على الأكثرية التي تؤازره في مجلس النواب، فأقدم على حل البرلمان في التاسع من نيسان عام ١٩٣٥، وأجرى انتخابات جديدة ونجح في كسب ود كل من جعفر العسكري ونوري السعيد بإشراكهما بالوزارة واعتقد أنه تمكن من تجميد المعارضة التي يمثلها الساسة التقليديون أمثال علي جودة الأيوبي، وجميل المدفعي، وحكمت سليمان، ولما كانت هذه المعارضة تتمتع برصيد بين بعض العشائر أو رجال الدين مكنها من تحريكهم ضد الحكومة فأنه استخدم الجيش في إخماد المعارضة الجديدة.

انتقد الأزري الأوضاع القائمة مشيراً إلى عدم إدراك السياسيين بأن القوة العشائرية لها أثر فعال في تغيير مجريات السياسة ولابد من استعمال الحلول الدبلوماسية لحل القضايا العالقة، كما انتقد الإجراء الذي أقدمت عليه وزارة الهاشمي ضد زعماء الفرات الأوسط ،حتى ضد من أزروه، ونتيجة لاتخاذ ياسين الهاشمي العديد من الإجراءات التي قيد بها سلطة الملك، قدم الأزري اقتراحاً من شأنه أن يعيد ثقة الشعب بالملك الاوهو، تزويد كل متصرف "محافظ" حينما تصدر الإرادة الملكية بتعيينه، بكتاب يتضمن بياناً من الملك، يقرأه علناً على الناس في اجتماع حاشد يدعوا إليه الأهالي من مختلف الطبقات ويبلغهم فيه باهتمام الملك والحكومة بشؤونهم، و يبلغهم فيه عن المهمة التي بعث من أجل انجازها، وعن المشاريع الإصلاحية التي سينهض بها، وعن مبادئ العدالة والمساواة التي سوف تطبق وفقاً لإحكام الدستور،والتي سوف يعامل بها الناس، كما وضح الأزري بأن يكتب في جملة

الخطاب أو البيان بأن يكون باب المتصرفيه "المحافظة" مفتوحاً لجميع المظلومين ، وفي هذه المناسبة، أكد أن البيان سوف يكون منهاجاً يلتزم به متصرف أمام الناس كما وتلتزم به الحكومة التي يمثلها ، وقد نال اقتراحه استحساناً كبيراً من رئيس الديوان الملكي رستم حيدر الذي عرضه بدوره على الملك ورئيس الوزراء الا انه لم ينفذ .

انتقد الأزري مديرية التحقيقات الجنائية، نتيجة قراءته لتقاريرها الأسبوعية ومن ثم عرضها على الملك ، فوجد أن هذه المديرية قد أصبحت مشغولة بشكل كامل بالحركات العشائرية بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٦ والتي شحنت الجو بحالة سياسية مزرية، حيث أولت اهتمامها بمراقبة تحركات مجموعة من الشخصيات العشائرية وكان القسم الأعظم منهم ليس لهم أي شأن في السياسة ولم يسبق لهم أن مارسوا أي نشاط فيها، كما أكد الأزري أنها تحاشت عن قصد بعدم مراقبة الأشخاص المهمين ذوي الشأن السياسي وذوي الباع واليد الطولى في حبك المؤامرات وعقد الاجتماعات السرية مثل حكمت سليمان وبكر صدقي .

إن استخدام الجيش ضد المعارضة قد مهد لبروز ظاهرة متميزة في تاريخ العراق المعاصر هو اندفاع الجيش و الدخول في المعترك السياسي إذ أدت كثرة استخدام الجيش في إخماد الحركات العشائرية إلى الشعور بمقدرته على أن يكون أداة للتغير السياسي لاسيما أن قوة الجيش قد زادت في عام ١٩٣٦ عما كانت عليه في السابق وظهر أن العشائر لم تعد احدى الوسائل الفعالة للوصول إلى السلطة أمام الأسلحة الحديثة وقوة النار الشديدة التي أصبح يمتلكها الجيش وساعد التذمر في أوساط الضباط باستخدام الجيش في ضرب المواطنين على

تبلور فكرة استخدام الجيش لإحداث انقلاب ضد وزارة الهاشمي وحدث فعلاً في التاسع و العشرين من تشرين الأول عام ١٩٣٦ بقيادة الفريق بكر صدقي، وكانت

عبد الكريم الازري

حفل زفاف الملك غازي في قصر الزهور

نتيجة الانقلاب تشكيل حكومة برئاسة حكمت سليمان (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ – ١٧ اب ١٩٣٧) ، أثر الانقلاب سلباً على رستم حيدر وأدى به إلى التغيب عن البلاط، ويعزو الأزري السبب الحقيقي إلى تغييبه بسبب التعاون الوثيق الذي كان سائداً بين رستم حيدر وياسين الهاشمي خلال وزارته الثانية، وكان يضمر في أعماقه تقديراً كبيراً وعقيدة لا تتزعزع في شخص الهاشمي، فكان يعده الشخص الوحيد المؤهل بعد وفاة الملك فيصل الأول القادر على النهوض بأعباء الحكم وتحمل مسؤولياته ، وإيجاد الحلول المناسبة لمشاكله(، تلقائياً أصبح عبد الكريم الأزري وكيلاً لرئاسة الديوان الملكي (٩ تشرين الأول ١٩٣٦ – ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٦) ، حتى صدرت الارادة الملكية بتعيين إبراهيم كمال ، رئيساً للديوان الملكي في السابع عشر من تشرين الثاني ١٩٣٦.

نتيجة لذلك مارس الأزري مهامه بوصفه معاون لرئيس الديوان الملكي بأكمل وجه، واستمر في مواصلة أعماله بكل همه ونشاط، لكن وصول إبراهيم كمال إلى رئاسة الديوان الملكي قد أضفى جواً جديداً على هذه الإعمال، حيث أن الأخير لم يقتاً بمباشرة إعماله بوصفه رئيس الديوان الملكي حتى أقدم على محاولة فرض شخصيته بقوة على موظفي دوائر البلاط الملكي، وكان إجراؤه الأول تقليص عمل معاون البلاط الملكي ومباشرته شخصياً بتصريف الأمور، حيث أن الأمر لم يسلم من وقوع الخطأ، الذي كشفته مديرية المحاسبات العامة، التي بينت مدى دقتها في متابعة كشوفات حسابات الديوان الشهرية، فقد لوحظ عند تدقيق حسابات رئاسة الديوان الملكي في الرابع والعشرين من كانون الأول ١٩٣٦، أن المبلغ ٣٥٢ فلساً المستحق خلال تشرين الثاني الماضي عن ضريبة الدخل على راتب الملاحظ فيكتور بحوشي لم يستقطع عند دفع راتبه في الشهر المذكور، فأوعزت باستقطاعه من الراتب القادم.

الأمر الذي أدى برئيس الديوان الملكي فيما بعد إلى معرفة أهمية منصب معاون رئيس الديوان الملكي وما توضع عليه من مهام، لذلك طالب تعديل درجة معاونه من الدرجة الخامسة إلى الدرجة الرابعة، واسهب في ذكر المبررات التي أنطوت على أن الدرجة الحالية للأخير لا تتفق والمسؤولية الملقاة على عاتقه، لاسيما أنه ينيب رئيس الديوان عند غيابه ولأجله أنيطت مسؤولية هذه الوظيفة بشخصية قديرة لها إلمام واسع في شؤون الدولة تتوافر فيها صفات تؤهله لإشغال هذا المنصب.

على أثر تعيين ناجي الأصيل ، رئيس التشريفات الملكية وزيراً للمخارجية في وزارة حكمت سليمان في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٣٦، صدرت الارادة الملكية بإسناد المنصب الشاغر إلى عبد الكريم الأزري معاون رئيس الديوان الملكي في الثالثين من تشرين الثاني من العام نفسه، وباشر الأزري إعماله في (٢ كانون الأول ١٩٣٦- ٢٤ اذار ١٩٣٧) .

والراجح أن هذا التعيين جاء بسبب أهمية المنصب المذكور، وضرورة عدم تركه شاغراً، لخطورة المهام التي يقوم بها شاغله، أو أن وزارة حكمت سليمان أرادت فرض سطوتها على البلاط الملكي من خلال تغيير العاملين فيه لاسيما أنها أقدمت على إجبار رستم حيدر لتقديم استقالته قبل هذا الحين، وأحلت إبراهيم كمال محله.

بين اورزدي باك وحسو اخوان

■شوان العمري

دخل التلفزيون بغداد في ١٩٥٤ حيث عرضته شركة باي الألمانية وقامت بشرائه حكومة العراق في عهد الملك فيصل الثاني وأفتتح الملك البث بتاريخ ١٩٥٦/٥/٢ بمناسبة ميلاده الواحد والعشرين ، بذلك أعتبر أول تلفزيون بالشرق الأوسط وهرعت الناس الى المقاهي التي تمتلك ذلك الجهاز ألاعجوبة ، وبدأ البغداديون بشراء التلفزيون الذي أصبح لابد منه والبعض فضل أن يشتري الجهاز من أسواق حسو أخوان الواقعه في شارع الرشيد قرب ساحة حافظ القاضي (ساحة فيصل الثاني سابقا) وحسو أخوان عبارة عن محل كبير فيه ما يحتاجه البيت من كهربائيات الى ملابس ولعب أطفال وغيرها وما يسمى اليوم في دول الغرب للتسوق وقفه واحده للتسوق ..... One Stop Shoppers. وخدمات ما بعد البيع أي صيانة وتصليح الأجهزة الكهربائية ومنها جهاز التلفزيون بالنظام المعروف عالميا after sale service المعمول به في بعض البلدان الغربية وأستمرت أسواق حسو أخوان بتقديم خدمات الصيانة ألتزاما منها طالما الجهاز مباع من قبلهم وأتذكر أحد الفنيين الذي كان يقوم بصيانة جهاز التلفزيون ماركة باي الذي أشتراه والدي المرحوم كان يأتي أينما سكنا في بغداد بسيارته نوع أنكليا أنكليزية الصنع وعدّته مع أبتسامته التى لاتفارق وجهه ليقوم بفحص ألجهاز وتنظيفه أو تبديل لمبه حين كانت التلفزيونات الأسود وألابيض تعمل بنظام اللمبات وأن تعذر أصلاحه في البيت يقوم ذلك الفني بنقل التلفزيون الى ورشة الصيانه في شركة حسو لأصلاحه ثم أعادته لنا .. وأستمرت تلك الخدمة الى نهاية الستينات حيث أ غلقت الشركة بعد أصدار القوانين التي تحد من ألاستثمارات ألاهلية..

ولم تكن شركة حسو أخوان الوحيدة التى أغلقت أبوابها بل شركات عديدة مثل وكالات بيع السيارات ماركة فورد وشيفروليه ومحلات نوفكس الشهيرة ببيع الملابس الرجالية ومكتبة مكنزي وغيرها من المعالم الشهيرة ، ومن الطرائف التى تحصل كان بعض زوار بغداد من المحافظات يسألون عنِ أورزدي باك فيقولون أين أورزدي بيكِ ضنا منهم أنه أسم شخص والعبارة بيكِ كانت تستخدم للتفخيم وهي تركية ألاصل.

أما اورزدي باك فهي كلمة ارتبطت بكل ماهو جيد من بضاعة ظهرت لاول مرة اوائل الثلاثينات من القرن العشرين ، والاورزدي كما يسميه العراقيين كان مكانا تباع فيه البضائع المنوعة المستوردة والمحلية وهي تشمل كل شي مثل الملابس ، الاقمشة ، لعب الاطفال ، المواد الغذائية ،المواد الكهربائية ، الادوات الاحتياطية ، الاكسسوارات ، العطور ، لوازم الاطفال ، لوازم نسائية وتقريبا كان يباع كل شي يخطر على البال ، وغالبا تكون البضاعة جيدة ومن مناشئ اوربية غربية ويابانية ، واصل كلمة اورزدي فقد تعددت الاقاويل عن اصلها ، فمنهم من قال:- ١- انها مشتقة من الكلمة الانجليزية Ours Day Bag اي حقيبة تسوقنا اليومية. ٢- انها اسم شركة اجنبية افتتحت اول سوق بهذا الاسم. ٣- انها كلمة فرنسية تعني سوق مركزي او مول ٤- انها مشروع تجاري في بغداد تابع لشركة عمر افندي وقد بيعت الى يهودي فرنسي يدعى اورزدي باك وسمي السوق بهذا الاسم.

ويقال أيضا ان أوروزدي باك يرجع اسمه إلى أودلف أوروزدى الذي كان ضابطا بالجيش المجري افتتح أول محل له لبيع الملابس بمدينة جالاتا عام ١٨٥٥ .ولقد بدأ أوروزدى وأبناؤه وهم من عائلة باك ذات الأصول النمساوية المجرية بإنشاء معارض شبيهة في أماكن متعددة بما فيها بغداد وإسطنبول وبيروت.ثم اشتراها ثري يهودي في القاهرة وسماها سلسلة متاجر "عمر أفندي" في مكانه الذي ما زال قائما في شارع عبد العزيز .

وبني اورزدي باك على ارض وقف قره علي والتي كانت عبارة عن قهوة ومسافرخانه (فندق) و مربط للخيل وهي ارض واسعة المساحة حدودها ما يلى من الامام شارع الرشيد ومن الخلف نهر دجلة و من الجانب الايمن (وانت تواجه البناية) ملك بيت الباججي ومن الجهه اليسرى مدرسة قره علي و تكية قره علي وجامع علي جلبي (جامع سيد سلطان علي) ودور بيت قره علي. هذا الموقع المتميزفي قلب بغداد وعلى اكبر شارع فيها و بمساحتها الشاسعة اجتذب انظار شركة عمر افندي التجارية لصاحبها عمر افندي الأرنئوط الالباني الاصل بالمفاتحة ببدء المشروع التجاري في بغداد لكن شركة عمر افندي بيعت الى يهودي فرنسي يدعى اورزدي باك والذي اخذ الخطوات الجدية في التعاقد مع متولي وقف قره علي محمد رشيد جلبي(رشيد جلبي) بن عبد الكريم جلبي قره على و بواسطة ممثل الشركة شاؤل المحامي المعروف من ملة اليهود و تم تأجير الارض اجارة طويلة لمدة ستة و ثلاثين سنة .

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم
العدد (3368) السنة الثانية عشرة
الاثنين (25) أيار 2015
www.almadasupplements.com

نائب رئيس التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: علي الماجدي

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون